

## تصدير

إذا كان هناك جانب مميز للإعلام الثقافي في مطلع هذه الألفية الثالثة، فهو المتمثل في المواقع الأدبية على الشبكة، الخاصة بالمؤسسات والأفراد. وهي ظاهرة تبرز إلى أي حد أصبح فيه الإعلام الثقافي في حل من قيود آليات الإعلام التقليدية المتمثلة في واجهات العرض والصحافة ووسائل الإعلام السمعية البصرية، بحيث أصبح في متناول كل من يهمه الأمر وله الكفاءة أو المقابل المادي المطلوب للتحكم في تقنيات تصميم المواقع وتعيينها، إمكانية عرض الصفحات الخاصة به أو بمؤسسته بما يرتضيه على تلك الصفحات من معلومات تعريفية وأخبار إعلامية ومواقف فكرية. ولم يعد عدد الصفحات أو حجمها عائقا أمام التوسع فيها، بل يبقى الهاجس الأكثر حضورا من خلال تلك الصفحات متمثلا في جمالية التصميم وكيفية العرض لإبراز الأهم ووضعها مباشرة تحت حواس تلقى المتصفح، لكي يضمن انجذابه.

فإذا كانت المواقع الخاصة بالمؤسسات الثقافية من سلطة إشراف مؤسسات المجتمع المدني كإتحادات الكتاب وجمعياتهم مثلا في حاجة إلى أن تعرف بالمؤسسة ونشاطها، فإن حاجة استقطاب المهتمين بمثل تلك المواقع من خلال منابر الحوار وتبادل الأفكار، تأتي في المرتبة الثانية بعد التعريف، ولفت النظر إلى الأنشطة التي توفرها المؤسسة. ولكن ما يلاحظ في خصوص شمولية نظر هذه المؤسسات وتواصل جهودها الإعلامية على وجه الخصوص، توقف الكثير من المواقع، بعد مدة من تركيزها، عن تعيين المعلومة ومواكبة ما يجد من أحداث ومواقف، بحيث يصبح أغلبها يعرض أخبارا وإصدارات راجعة إلى أشهر أو سنوات خلت تحت عناوين صفحات يفترض فيها الجدة الحينية ومواكبة. وكثيرا ما تتغير قائمة منشوات تلك المؤسسة أو وضع الكتاب المنضوين تحتها دون أن ينعكس ذلك على تلك الصفحات المخصصة في مواقعها لإبراز الجديد الطارئ. وبذلك يجد المتابع لمثل هذه المواقع نفسه، في موقف الحذر المتشكك في صدقية المعلومة، وتدرجيا تخسر تلك المواقع جانبها من متابعيها والمتعلقين بها، وتقتصر عن صفة "الموقع؟ المرجع" التي غالبا ما تكون من أسباب بعث الموقع وتبريراته. أما فيما يتعلق بالمواقع الخاصة بالأفراد فهي تعريفية بالأساس، وإعلامية بالدرجة الثانية، ولكنها تمتاز أيضا في حالات عديدة، بتوفير نماذج من الإبداع الخاص بصاحبها التي لم تجد بعد، طريقها للنشر وفق الحوامل العادية من ورق صحافة أو كتاب

أو أمواج محطات إذاعية أو تلفزيونية. ويبدو أن هذا الجانب هو الأهم في دوافع أصحاب تلك المواقع، من وراء إدراج كتاباتهم على مثل تلك الصفحات، وكثيرا ما تكون نتيجة ذلك الجمع بين الغث والسمين، وغالبا ما يكون الغث هو الطاغى نظرا لأن أغلب أصحاب تلك المواقع يتوهمون أنهم في سباق مع الزمن، لإبراز كل ما يجد في تفكيرهم وما تتفق عليه جوانب الإبداع في شخصيتهم. لذلك كثيرا ما نجد في تلك المواقع المتسمة بصفة المواكبة الدورية مزيجا من الكلمة والصورة، وأحيانا من الإبداع الشخصي والتضمين، ولكن الحصلة تبقى غير مقنعة بتميز فكر صاحب الموقع وجهوده الفكرية، وهكذا يفتر حماس المتابع لتلك المواقع تدريجيا، وبذلك تفقد تلك الواجهة الإعلامية أيضا أحد أهم أهدافها المتمثلة في التبليغ الثقافي.

الأكد أن المواقع الإعلامية الفكرية والأدبية منها على وجه الخصوص، ظاهرة إيجابية جديدة في الدورة الثقافية وآليات التبليغ الثقافي، ولكنها ككل الآليات التفاعلية تقوم على عقد ضمني بين أصحاب تلك المواقع والطرف الآخر المتمثل في المتابع لها. وهذا العقد تحكمه حرية الاختيار بحسب ما يوفره العرض من إفادة، وهو عقد قائم على جانب كبير من الدقة والحساسية، ذلك أن «المتابع»؟ ولنقل «المتلقي»؟ متعدد ومتنوع ومتباين، ولكن قد لا يكون كذلك في تصور صاحب الموقع، مما يجعل نظرة كل منهما لذلك الجهد الثقافي الإعلامي الذي يجمعهما، تختلف بحسب الدوافع والرغبات التي تحرك كلا منهما. ولعل الحد الأدنى لتأمين «الوظيفة التبليغية» لمثل هذه المواقع الإعلامية على الشبكة، يبقى متمثلا في اكتمال المعلومة وحديثها، وفي الاستجابة لبعض ما يتصوره المتلقي من خصوصية في تلك المواقع تميزها عن غيرها بما قد لا تتوفر لغيرها من قنوات التبليغ الفكري الأخرى.

وهكذا يتضح أن قانون التبليغ الثقافي يبقى - مهما اختلفت الحوامل وتطورت - قائما على ثلاثية تجمع بين «صاحب الخطاب» و«متلقيه» من خلال «موضوع الخطاب»، وهذه الثلاثية من الثوابت التي تتطلب التمعن في كل طرف بكثير من الجدية لضمان تواصله مع البقية ضمن دورة ثقافية ما انفكت من خلال ما أصبحت تعرفه من تعقد وانفتاح على جوانب أخرى مثل التسويق والدعاية والتوثيق وغيرها، تقم في مجالات اهتمامها، تثمين محتوى الخطاب الثقافي باعتباره مضمونا فكريا أو دعاية وإشهارا أو بضاعة قابلة للتسويق ..

«نقص»

## باب العرش

## آمال مختار

تنتظر قدوم «رمضان» كمن ينتظر الفرج. على قلق تظلّ تعدّ الساعات والأيام والليالي الطوال والأشهر حتى يأتي «رمضان». في هذا الشهر تشتعل فيها الحياة التي تخدم نارها طول سنة تقضيها مريضة كثيبة تشكو من أوجاع الرأس وضيق التنفس.

في بداية شبابها عندما أصابتها هذه الأعراض اهتم والداه بها فأخذوها إلى أكثر من طبيب وأجريت عليها فحوصات مختلفة وصور أشعة لكن كل أنواع الفحوصات أكدت أنها سليمة لا تعاني من أي مرض، غير أنها ظلت رغم كل ذلك تشكو طوال سنين من الأوجاع التي تنخر رأسها حتى تحسّ بأنه يكاد ينفجر، خاصة في الليل. أما ضيق التنفس فكانت أزماته تقبض عليها فجرا وهي شبه نائمة فتفزع من كوابيسها لتستغيث وتستجدي نفسها بعيد إليها الحياة التي تكاد تفارقها. لكنها لا تريد أن تفارق الحياة. إنها تعيش طوال أحد عشر شهرا منتظرة أن يأتي شهر الصيام لتعانق الحياة من جديد.

خلال هذا الشهر يصحّ رأسها وتتلاشى تلك الأوجاع التي تدقها طوال ليالي كثيرة مرعبة، وتختفي أزمات الاختناق التي تصيبها في فجر كل ليلة وتعود إليها الإشراقة، فتعود صبية نضرة، بل إنها تسترجع ملامح جمالها بعد أن ترفع عن جبينها تلك العصاة التي تكبس بها رأسها لتخفّف عليها الأوجاع التي لم تنفع معها كل أنواع الأقراص التي تتعاطاها.

تستعدّ صبرة لاستقبال رمضان كمن تستعد لحفل زواجها، وإذا بها قبل شهر تخطط الملابس الجديدة وإذا بها تذهب إلى الحلاقة فتصبغ شعرها لتخفي خصلات الشيب التي بدأت تغزو شعرها الأسود الطويل، وقبل أن يحلّ الشهر الكريم بليلة واحدة تذهب إلى الحمام التركي ثم تعود إلى المنزل كعروس، تطلق شعرها الطويل الجميل على كتفيها وترتدي ملابسها الجديدة وتتجمل، وتحرك في المنزل سيّدة بلا منازع فتتولى الطبخ وإعداد أصناف عديدة من الأكل اللذيذ.

وهي بكل تلك الاستعدادات تنطلق في رحلة انتظار جديدة، انتظار لذيذ من نوع آخر، إنها تنتظر ليلة القدر!

في السنوات الأولى التي بدأت تتشكل فيها هذه الحالة التي تلبس صبرة خلال السنة لتتحول إلى نقيضها خلال شهر رمضان، كانت الدهشة تصيب كل أفراد عائلتها. شيئا فشيئا، تعود الجميع على ما أصاب صبرة. بل إنهم أصبحوا يشاركونها انتظار شهر الصيام لأنهم، خلاله يرون وجه ابنتهم الحقيقي، وجه المرأة المقبلة على الحياة بنهم، إلى جانب ذلك فهي في رمضان تتحمل مسؤولية المنزل كأحسن ما يكون، فتمنح والدتها إجازة لتتولى هي الخروج والتسوق والطبخ وإعداد المائدة بكل ما تحمل من أصناف يقبل عليها إخوتها ووالداها بشهية متفتحة.

والدتها أكدت للجميع أن ابنتها تعرضت لعملية سحر جعلتها تستيقظ من سجن مرضها شهرا في السنة، لذلك ذهبت إلى كل السحرة الذين سمعت عن عبقريتهم ودفعت الكثير لكي تحرر ابنتها فتقبل بمن يتقدمون لخطبتها وتزوج بعد أن انقطعت عن الدراسة بمحض إرادتها.

لكن لاشيء من كل ذلك نفع، فلا البنت تحررت، ولا السحرة نجحوا في كشف سرها، ولا الطب شفاها وظلّت حكايتها تروى في الحي وتضاف إليها في كل مرة تفاصيل من مخيلة الذين يرددونها.

لم تكن «صبرة» تسمح إلى أي أحد بالحديث في موضوع حالتها. الوحيدة التي كانت تساررها هي صديقتها منذ الطفولة وجارتها التي تزوجت في السنوات الأخيرة فأصبحت تراها نادرا بحكم سكنها في حي بعيد وأنشغالها بعملها وبيتها، فقط كانت تقابلها عندما تزور هناك أهلها. وفي كل مرة كانت هناك تقابل فيها صبرة كانت تحاول أن تفتح معها الماضي وأن تساعدتها لتشفي نفسها لكنها كانت تغلق كل الأبواب. خلال هذا الشهر جاءت هناك لزيارة أهلها ومقابلة صديقتها الحميمية صبرة منذ الأيام الأولى من الشهر.

سارعت هناك إلى صبرة لتعلمها بأن هناك من يريد الزواج بها وبأنه سيتقدم إلى خطبتها ليلة السابع والعشرين من الشهر الكريم، لم تصدق صبرة الخبر وراحت استعداداتها لانتظار ليلة القدر لهذه السنة تكبر لتصبح استعدادات العروسة تماما.

وافقت صبرة أخيرا على الخطبة وضح المنزل بغرح غير عادي، أخيرا انحلت عقدة صبرة.

وانتظر الجميع ليلة القدر على الجمر.



وجاءت ليلة القدر. تجملت صبرة فبدت كأنها حورية من الجنة. خرجت من غرفتها وهي ترتدي فستانا أبيض. سلّمت على أهل العريس، ثم جلست، نظرت خلصة إلى الرّجل الذي سيصبح زوجها، ربّما انتابتها بعض أحاسيس الإعجاب، لكنّها لم تهتم. كانت تنظر إلى ساعتها كأنها على موعد.

في تمام منتصف الليل تسلكت صبرة، وتسلكت المدارج إلى سطح المنزل. وكعادتها منذ سنوات طويلة، بل منذ أن كانت طفلة، وضعت صبرة الحشية والمخدة والأغطية واستلقت تنظر إلى السماء تنتظر أن يفتح باب العرش في وجهها من جديد كما فُتح وهي طفلة لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها. ليلتها كانت ليلة القدر ليلة صيفية، كانت وصديقتها هناء تنتظران على سطح المنزل في لهو طفولي وقد صدّقتا حكاية باب العرش، وبينما كانت كل واحدة تحلم بصوت عال وترتّب مطالبها سمعتا وقع خطوات على السّطح. هربت هناء. أما صبرة فقد ظلّت مغمضة العينين تنتظر هذا الذي سيفتح لها باب العرش. قدح ضوء في الظلام. سمعت صبرة صوت القدح ففتحت عينيها وشاهدت وجهها ملائكية احتضنها وأخذها إلى جناته.

انتظرت العائلة عودة صبرة خاصة وأن خطيبها استعد ليضع في إصبعها خاتم الخطوبة. مرّت ساعات الزّمن حتى كادت تبلغ السّاعة الثانية بعد منتصف الليل.

بحث الجميع عن صبرة فلا أثر لها. قالت هناء: «لعلّها على السطح تشاهد الليل كعادتها».

صعد الجميع إلى سطح المنزل فعثروا على الحشية والأغطية. لكن... لا أثر لصبرة.

آمال مختار

محمد الحادي بن صالح

# باب الترحمة



نشر بوزيد

## المتنبى يحتفل بعيد ميلاده

(عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد)

مراد الحجري

دخل أبو الطيب المتنبى إلى مكتبه الفخم الموجود في المطابق الثامن من  
بناية عالية وسط العاصمة الفرنسية باريس... طلب من مديرة أعماله الأمريكية  
الجنسية اليهودية الأصل أن تلغي كل مواعيده الرسمية وأمسياته الشعرية خلال  
الأسبوع القادم لأنه سيحتفل بعيد ميلاده... أمرها بأن تقوم بحجز جناح كامل في  
فندق ضخم لا تقل نجومه عن الخمسة... سأل مديرة أعماله عن أفضل مكان لإقامة  
حفلة عيد الميلاد :

- ما رأيك في الكوفة مسقط رأسي ؟

- لا... لا الكوفة ليست آمنة... العراق كله ليس آمناً... نخاف من الإرهابيين أن  
يفسدوا علينا الحفل...

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

- ما رأيك في لبنان ؟

- لبنان... لا أنصحك به... فشبح الحرب الأهلية مازال يرفرف بجناحيه عليه  
منذ الصائفة...

- أي بلد تقترحين ؟

- أقترح سويسرا...

- لماذا سويسرا ؟

- لأن العرب يحبون سويسرا... فهي منتجعهم وموطن ودائعهم وأموالهم...  
وحفلة عيد الميلاد فرصة لإراحة الأجساد المرهقة وترويح النفوس الضجرة لتفقد  
الكنوز النائمة والتأثثة... وأعتقد أنهم سيقدمون لك منها هدايا وفيرة وعطايا ثمينة...  
أعجب المتنبى - ككل مرة - برجاحة عقلها وسلامة تفكيرها وطلب منها أن  
ترسل بطاقات دعوات إلى الرؤساء والملوك ورجال الأعمال وأهل الأدب  
والثقافة... سألته مديرة أعماله :

- هل أرسل دعوات إلى الشعراء ؟

- الشعراء القدامى فحسب... أما الشعراء المعاصرون فشعرهم سخي لا يمت للشعر بصلة...

- فكّر قليلا ثم أردف قائلا :

- لا بأس... أرسلني لبعضهم وإن كان شعرهم لا يختلف عن الشعر... لكن لا بأس من التلميح بأن تكون هداياهم في مستوى المؤمل...

طار الجميع إلى سويسرا لحضور حفلة عيد الميلاد... بدأت الحفلة بطقوس كرنفالية وافتتح المتنبي الاحتفال بإلقاء قصيدة فخريّة، امتدح فيها نفسه تصرّحا، وهجا تلميحا سيف الدولة لأنه اعتذر عن الحضور وانشغل بمتابعة أخبار سيارته الجديدة التي ستشارك في مسابقات «فرمولا 1» للسيارات... ثم انغمس الجميع في الأكل والشرب وفي الغناء والرقص والمجون... فهذا عمر بن أبي ربيعة قد انقضّ على مغنيّة بوب أمريكية فاتنة لبعضها من مؤخرتها، فبدأت تصيح من حدة الوجع وشدة الشبق... أما جميل بن معمر فقد فتته سحر مطربة عربية رقصت أمامه وهي إلى العري أقرب... فخاف الوشاة والرقباء... ما انفكت تضيق عليه الأنفاس وترسل الرقباء وراءه... فترك المكان ودخل إلى دورة المياه ويده ترتجف... وهذا أبو نوّاس جالس قرب المسيح، وقد اصطفت القوارير على مختلف الجبهات وهو يناضل دون انقطاع بين الألوان والمذاقات، لا يتوقف إلا عند الانصراف إلى دورة المياه... ثم وقد أدرك في النهاية أن حياة تقصر عن الاتيان على ضمور الدنيا كما عاهد على ذلك شهادته، فضل أن ينتحر بأن يلقي بنفسه في المسبح وهو يردد :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ما نحبش نصلّي نحب نسكر ونغني  
وانشغل أبو تمام والبحري بتبادل نكت بذيئة وصور خلية ومقطوعات شعرية هجائية عبر الإرساليات القصيرة... وكان في أقصى جناح الفندق الزير سالم يشرب الفودكا بنهم رافضا صحبة الندامى، ولما أدركه الوعي الوجودي بطغيان معنى الموت على الحياة شرع في رثاء كليب قائلا :  
«لَا كَانَ فَالِحٌ فِي الْفَلَاحَةِ»  
«لَا كَانَتْ فَرَسَتُهُ فِي الْخَلَا لَوَاحَةٍ»  
«لَا كَانَتْ زُكْرَتُهُ فِي الْمَحَاقِلِ نَوَاحَةٍ»  
«مَاتَ الْكَلْبُ يَا مَلَأَ رَاحَةً»

وغير بعيد عن الزير سالم كان امرؤ القيس ينفخ صدره من حين لآخر بنفس من الكوكابين أو نفة من الهيروين.. حتى انتشى إلى حد الإعجاب وقد أشيع عنه الإدمان وانصرافه إلى المتاجرة في المخدرات وترويجها بين قبائل العرب... وأمام

هذه الفوضى الاحتفالية، بدأ السيّاب والبيّاتي ونازك الملائكة كالغرباء المدعوين إلى مأدبة اللثام. وقد عكست ملامحهم اشمئزازا واحتجاجا على الصّخب الذي صاحب قراءة الشّعراء القدامى لما تيسّر من أشعارهم... ثم التحق بهم جبران خليل جبران ونزار قبّاني ومحمود درويش وغير بعيد وقف الشابي في جبة جريدية رقيقة الحواشي مهموما بالنار التي تتقد في صدره غير عابئ بثلوج سويسرا التي كانت تجمد أطرافه.

أوشك الليل أن يتوارى خلف بوكبة دهاليز الزمان... وأطفأ المتنبي شمعة وحيدة... وقدم له المدعوون هدايا هم المتنوعة وشيكات كثيرة... وفي صباح الغد لما ذهب المتنبي إلى البنك لتنزيل الشيكات في حسابه الخاص ألقي عليه القبض ووقع اتهامه بتمويل الإرهاب وتصنيع الدمار وتبييض نشاز التاريخ العربي وسرعان ما عقدت له محاكمة وكلف محام للدفاع عنه إن رغب في ذلك... ومثل المتنبي أمام المحكمة وكانت محاكمة عادلة جداً أمام شاشات التلفاز لم يعترض على تفاصيلها معترض ولم يتكلم فيها المتنبي ولا محاميه الذي عين له. -عندما استوفت المحكمة جميع الأسئلة والأجوبة عنها من الهيئة المحلفة واستندت سماع التفاصيل القديمة والحكايات الجديدة- أصدرت حكمها بالإعدام...

وذا فجر من يوم فرح مؤجل، أعدم المتنبي وطوّقت المشنقة عنقه واشتغلت شمعة الأحزان المتجددة كهم خرافي تستوطن ما بقي من رماد جمرة الرّوح الساكنة...

وبعد أيام من حادثة الإعدام، جاء بأحد المواقع على الشبكة العنكبوتية «رحم الله المتنبي... عاش عزيزا ومات كريما... لقد مرّ كالخيال... وجعلنا نتذوّق جميعا -عجما وعربا- طعما مختلفا للهزيمة...»

مراد الحجري

## قافلة الضياع

ناجي الفرشيشي

طَوَّحَتْ بِهِمْ رِيَّاحُ الْبَيْدِ الْأَثْمَةُ سَنِينَ عَدَدًا، قَبْلَ أَنْ يَحْلُتُوا فِي دِينِهَا أَرْسَالًا وَيَحْزُوا مَغَانِمَ وَأَنْفَالًا. وَتَفَتَّتْ ظِلَالُهُمْ عَلَى مَا صَقَبَ مِنَ الْمَدَائِنِ وَالْأَدْغَالِ وَالْغِيَاضِ، فَاسْتَوْقَدُوا سَرْجَهَا وَأَبَادُوا ظِلْمَهَا. كَمْ أَرْضًا مَتْرَعَةً نَجُومَهَا صَدًّا خَامِدَةً الْجَمْرِ أَضَاؤُهَا بَرُوقَهَا وَأَحْيَا عُرُوقَهَا. هُنَاكَ كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ تَنْتَصِبُ. أَشْهَادٌ عَلَيْهِمْ سَكُّ الشَّجَرِ الْمَمْتَدَّةِ وَصُرُوحُ مَنْ صَلَدَ الْحَجَرُ كَانُوا مِنْهُ فِي مَنَعَةٍ وَحَصْنٍ حَصِينٍ. وَاحِدَةٌ مَظْلُوكٌ فِيهَا زُرُوعٌ وَطَلْعُهَا نَخْلٌ هُضِيمٌ تَسِيحُ خِلَالَ أَضْلَعِهَا الْأَنْهَارُ مَاءً دَافِقًا وَتَلَجٌ فِي تَدْفُقِهَا الْعَيُونُ ضَخَّاعَةً، قَدْ غَبِطَتْهُمْ عَلَيْهَا قَوَافِلُ عَنْهُمْ مَتَخَلِّفَاتٌ إِذْ قَالُوا فِي لَهْفَةٍ: «أَمَّا أَنْنَا لَوْلَا أَنْ لَنَا فِرَاسَةٌ رَوَّادُهُمْ لَكُنَّا أَوَّلُ مَنْ أَصْطَفَى فِسَائِلَهَا وَغَرَسَ قَضْبَانَهَا وَرَفَعَ بَنِيَانَهَا. وَخَلَفُوا لَا يَذْمُنُونَ وَلَا يَكْتَحِلُونَ وَلَا يَمْتَشِطُونَ حَتَّى يَبْرُكُوهُمْ أَوْ يَمُوتُوا نَوْنَهُمْ عَطْشًا، لَكِنَّهُمْ كَانُوا كُلَّمَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَحِقُوا بِهِمْ أَنَّهُمْ كَهُمْ وَعَثَّ الصَّحَرَاءُ فَتَعَثَرَتْ جَمَالُهُمْ وَسَاخَتْ فِي الرَّمْلِ مَنَاسِمُهَا، وَتَعَطَّلَتْ هَوَادِجُهُمْ وَتَحَيَّرَ حَدَاثُهُمْ وَقَفَاتُهُمْ حَتَّى أَبْعَدُوا عَنْهُمْ وَصَارُوا كَالْأَمَانِيِّ. وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَيْسُوا مِنْهُمْ وَلَمْ يَقْطَعُوا مِنْ إِدْرَاكِ رَكَائِبِهِمْ حَبَائِلَ الْأَمَالِ.

نَشَأَ جَدِيسٌ مُلْحَقًا لِإِبِلِ قَوْمِهِ، وَظَلَّتْ أُمُّهُ تَلْقَمُهُ حَلْمَتَهَا وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعٍ وَلَمْ يَتِمَّ لَهُ الْفَصَالُ حَتَّى طَرَحَتْ نَاقَةً لَهُمْ وَلَيْدَهَا فَعَلَقَهَا وَعَطَفَتْ عَلَيْهِ وَدَرَّتْ لَهُ ضَرْعَهَا سَخِيًا حَتَّى اشْتَدَّ وَصَارَ كَمَرْصُوصِ الْبَنِيَانِ. ثُمَّ عَنْ لُهُ فِي كِمَالِهِ أَنْ يَبْرِي جِسْدَهُ وَقَدْ صَارَ لَحِيمًا. فَأَقْبَلَ عَلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي فِي التَّلِّ وَطَفِقَ حَجَّكَ يَرَاوِدُهَا أَنْ تَقَعَ لَهُ بِالْعَتَكَةِ وَالْمَرْدَاةِ وَالْعَزْمِ وَأَقْرَانِهِ مَنْصَرِفُونَ إِلَى الْفَرَاغِ وَسَقَطَ الْحَدِيثُ. فَلَمَّا لَانَتْ لَهُ بِالْجَهْدِ بَعْدَ الصَّدِّ وَأَسْلَمَتْ، رَأَى أَنْ يَصِيبَ مِنْهَا دَارًا وَقَرَارًا. فَأَقْبَلَ عَلَيْهَا نَقَرًا وَقَطَعَا وَصَقَلَا يَهْدِيهَا وَيَشْدُبُهَا حَتَّى اسْتَكَانَتْ وَتَهَيَّأَتْ لَهُ كَالدَّيْرِ يَسْلُمُ فِيهِ النَّفْسُ إِلَى صَفَاءِ الْفِكْرَةِ فِي الْخُلُوةِ وَيَنْظُرُ فِي مَجَالٍ وَكُتُبِ الْغَابِرِينَ. فَكَانَ يَرَى دَالِفًا إِلَى الصَّخْرَةِ خَارِجًا مِنَ الصَّخْرَةِ أَعْتَى مِنَ الصَّخْرَةِ، حَتَّى أَخَذَ النَّاسُ بِهِ وَوَقَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ كُلِّ مَوْقِعٍ وَفَتْنِهِمْ بِأَسِهِ، فَصَارَ عَنْدهُمْ أَثِيرًا حَظِيًّا. فَقَالَ سَيِّدُهُمْ: «تَا اللَّهُ، إِنَّهُ

للقمر طمس السرج توقد ذهن ونباهة ورجاحة عقل. وإنه اليوم منا لمكين، واءتمروا  
 بينهم أن يعقدوا له على القوافل يروض أجسادهم. فضمن لهم خلوص النية.  
 وأصبح من يومه غاديا على عمله. فحشرهم وصيرهم البكرة إلى الفج وصارعهم  
 فكان يلقي من نازله خساراً. ثم ألزمهم أكر الصخر يدفعون بها من سفح الجبل إلى  
 نروته صاعدين ويتلقونها نازلين وقد نفضت الرمضاء سعيها على آدم الوجوه  
 تصلها رهقا وهو ما ينفك يحفر خامد همهم فتتفر من النصب عروقهم وتتغصن  
 أوردتهم وتبرز على وجوههم كالقتررة من أثر موصول الجهد. ولا يزال بهم حتى  
 تكاد تصير العتمة وينزف ريقهم فلا يطيقون براحا تعباً وسغباً، فيعلقون به  
 ويجهدون به كل الجهد أن يصرفهم، وهو مع ذلك يزعم أنه ما سألهم شططا ولا  
 استفزع منهم مقطوع الجهد ولا أخذه كمالاً. ثم يقول: «لن تنتنوا عني أو تصير الريلة  
 منكم كالصخرة الجلمود، وتثبت الساق فلا تهزها عاتيات الرياح واثقف ظهوركم  
 فتقوم كالصوان فلا تتداعى ولو أناخت على متونكم الرواسي. ثم إنني لصانغ  
 أجنحتكم صفيحاً تطحنون به العداء وتقعدون بها طامحات القوافل المتربصات  
 بنا، أنتم لمرسلون لميلاد يوم عظيم، لأنفذنكم إلى أقطار أرض سحيقة كريمة  
 عذراء لم يمسسها إنسي، ولنتعلن على قطارات القوافل ولأفتح لكم فتحا مبينا.  
 الكد الكد، فإن به تسبق الأمم - السعي السعي، فإن من قعد به السعي لا شأن له ولا  
 أمر. وإياكم والتخاذل لأنه الهلك والخسران والقياب. واحذروا الركود فإنه ينهش  
 النفوس كما يأكل الصبأ الجديد ثم يشخص تلقاء السماء ويردف وعيناه  
 مشدودتان إلى نسر يحوم في الفضاء ويضرب بجناحيه خفاقاً «لكن مضاربهما  
 يقع في قلبي. إنني وددت أن لي منه جناحا أصاعد به وأسابق الريح وأعبر إلى  
 متراميات الضفاف البكر وأكون أبا عذرها. ثم يمد البصر إلى السماء كالحسناء  
 يتعشقها. وهتف: «ألا فقولني كيف السبيل إلى ثرياك يا أرض الصقور والنسور  
 والبزاة والشواهين والعقبان؟ كيف التعلّي يهذي والتّهويم في أفلاك في لطف  
 السديم وجر الأمانى إلى البعيد القصي الأبق. ثم يرجع البصر إلى الملاء وهم بين  
 الجاثي والجانيح والباسط رجليه والقاطض وقد أقرح الصخر منهم العاتق وأدمى  
 أرجلهم وأيديهم ويقول: إن المعالي مرتقاها لأشق من العقبة الكؤود. أفبأجنحة  
 الفراش والجراد تستطيلون وتخطرون؟ وجهي من وجوهكم حرام «إن أنتم عني  
 تشاغلتم أو تخاذلتم وتهاونتم». فيقومون إعظاما له قائلين: «إن ما يجرتنا على  
 الحلم يا معلمنا قسمنا وعهدنا أن نتعلّى ولا نتولّى، ونعكف على أجنحة الفراش  
 والجراد نروضها حتى نطرحها كسلخ الصلال الرقش ويكون الرداء أجنحة الصخر  
 وخرشاء الحديد. إننا أحببنا رفقتك والكيونة معك أنى كنت. فامض بنا فلن نلود إلا

بمغناك ولن نجتني إلا من غرسك وسنكون لك الدهر من التابعين». فنيست  
لحديثهم ويضمّر أنّه أشهى إليه من الماء القراح إلى ذي الغلّة الحرّان، وأنّ النّصب  
ما ذهب جفاء، والعرق سيخرق الأرض فيكون الجنين أخضر عبقاً مغناً.

وكان هذا دأبه مصبها ومشرقاً وممسياً لولا أن غيّه اعتكاف غير معهود لزم  
فيه بيته وقطع الناس. ومكث على تلك الحال أياماً منقطعاً إلى نفسه لا يبرحها، ولا  
والله إن دخل عليه من أحد ولا عادوه لما كان له عندهم من التّهيّب والتوقير والإيثار  
حتى ظنّوا أنّه قد وجد عليهم في أمر بلغه فعقدوا أمرهم بينهم أن يرسلوا إليه أخصّ  
الناس بويّه يتعرفون خبره.

قالت أميمة : «كان يعيش رخيّ البال خليّ الرّوع وادعا، ويطبق ملء جفونه  
حتى أتت عليه ليال ذهب فيها الرّؤى بلذاذة الكرى. فلما رأت خلّه أرقه وقلقه وقلّة  
قراره على فراشه قالت : ويك جدّيس ما خطبك في لياليك هذه ؟ ما عهدتك كسلان  
خائراً فانيا مبتئساً قائماً أو قاعداً غادياً أو راثحاً. قال : «ناشدتك الله أن تكليني يا  
امراة لغومي تترادفني ولهذه الدّياجى يعكف أولها على آخرها وتتوالى نجومها  
بطيئات التّبع قالت : «ليس بأغنى من البوح. أعادك التّهيّام بي بعد طول الجفوة  
وانصرافك عني إلى السماء تناجي قبابها وتحاكي طيورها ؟» قال : «كلّا هذا ليس  
من تباريح الوجد. بل إنّي رأيت رؤيا هالتي بها وما توجه لي فيها وجه. قالت : ألا  
تعلم أنا معشر النّساء لا يكون لنا إلّ إلا بعد نضو الكاهن ؟ فلما غدا أرسل إلى  
الأطباء والكهّان والحزّاة من العرّافين يأمرهم بالشّخص ونذب لذلك أعوانا له.  
فلما نميّ إليهم الخبر وافوا سراعاً. فاستدناهم وقال : «إنّي دعوت بكم لهم أهمّي».   
قالوا : ألا فهاته قال : «إنّي رأيت رؤيا أرقّنتني وقلّصت النّوم عن عيني فمن يعبرها  
لي ؟ إنّي رأيت كرائم جيادي «وقاد» و«وثاب» و«رماح» في أجمة كثيفة. الأول يأكل  
من عسلوج خضّر عليه الورق صدوح. والثاني كالشارع تفتات من هامته جزر  
السّباع وتنهشه الضّباع وتصيب من كراعه وعينيّه الغربان وتقطع أوصاله الجوارح  
والآخر يجري على غير هدى سدى على قوائم مبتورة وأضلاع مكسورة. قالوا : إن  
هذه وأبيك لرؤيا مبيّنة : إنّه والد لك ولد كائن له شأن يخرج من عسبه ولد هيات  
يكون له فضل فتارك له نسلاً يشقى به الفكر.

\* \* \* \*

ثم أصفقوا عن دينها وانسلخوا منها من بعد أن بسط لهم الرّزق. فتردّوا بعد  
أن تعلّوا وبدكوا بقرارهم قراراً إذ نزلوا بواد عميق غير ذي زرع ولا فرع فنبدوا فيه  
أحقاباً لا مخرج ولا مرعى إلا غشاء أحمر. وكان شربهم من نقر جحود ويثار احتفروها



ضئيلة. فهم في كل يوم يهيمون على جناحي الوادي يستمطرون مشرقين فلا يغاثون. أما الشمس فكانت لسحق الهوة التي تردوا فيها تقصر عنهم فلا تجود إلا بمقدار. تكاد العتمة إذا شخّصوا بأبصارهم إلى رأس الوادي تغشي أبصارهم وتشرب الضوء. وتنشأ بين السنين والسنين كالظلمة من فوقهم تمر عليهم وكان في رحمها حركة وجلبة، فيتوجسون ويشربون قائلين : حتّام مقامنا ؟ وإيان تخرج من بطن هذا الوادي فقد أودى بنا الضر ؟ فيقوم فيهم مردّس مذكرا : أو لم توصل لكم البيانات ثاقبات ؟ هذا ركام الخطايا : تجزأتم الواحة وأحدثتم فيها وأقعدتم دانيات المتع عن رحلة الحق حتّى أخذتم بصرصر استأصلت خضراءكم وأودت بكم في الغيابات. فأني الخروج وأنتم تتمطون في قم الموت، فأني الخروج يا عواميد الكبريت والملح. وأني الخروج وقد دجا الفضاء وأدلهم بسحّم الغربان تطرّز أفقكم وتسدي أفنانكم. ثم يقوم مغضبا وهو يقول : تنحوا عني يا غربان البين. لو خسفت بكم الأرض أو نزلت عليكم من السماء كسف أو أخذتم الرجفة لكفتني السماء مؤونة وأدكم. لكن الإله لم يرحمكم بالقتل وقال : لعقابكم أن تحشروا في الموت أحياء تبصرون.

وقالوا له يوما يسألون : أمرّداس أنبئنا اليست الحياة بقادرة على تجديد خلاياها...؟ ألا تخصب هذه الأرض العقيم بعد أن أقحطنا وغشيتنا سنون أجزا تَجْرَعْنَا فِيهَا الْمُرَا؟ أليس لهذه الغمامة التي تصدّ عنا النور أن تنقشع ؟ أي مردّاس أنبئنا ما هذه الظلّة التي تأخذ بنا كالقجوة كلما اشرأبنا إلى أفق الوادي ؟ وما تلك الجلبّة كأنها النغير كامن في بطن الظلّة ؟ وكان يقول لهم : «إني لأخشى عليكم توفكم إلى النور أن يكون معييا وشوقكم أن يكون مهلكا. لو رأيتم الحوادث بعين البصير... إنّما هي أوزار خطايا الماضي يوم الهاكم سحر الواحة عن وصايا جديس : إنّ الماء إذا سكن أسنّ، والجوارح متى كسلت هزلت والنار إن لم ترع بالذكي خبّت. كذلك الحركة والفعل جسرا الحياة لا يهجع لها نبض. لكنكم أخرجتم نشيش الفعل وأقعدتم هسيس السعي وحططتم عن ظهور المطي الرّحال وعقلتم القافلة وقطعتم الرّحلة حتّى تخطفتم ممّا ظننتم أنكم من بهجتها لا تخرجون. أما كان لكم أن تزجروا قلوبكم عن هواها ؟. كلاً بل أرادكم زيف الخلد في شبق الغلّة والهاكم التهافت عن وصية الوصايا تضربون في الأرض أحقابا لا الوهج يضنيكم ولا الصبّا تغريكم. في رحلة الحقّ والمعراج تنمون صعدا حتّى توفي قوافلكم أقصى نزوة في الأرض حيث تحلم كل قافلة أن تعصر الغيوم تشرب خمّر السديم، حين ترخي جفونها الإبل وتشرع قوائمها للريح العيس وتكتسي أجنحة الغرائيق، اسرجوا أفكاركم. ذلكم معبر القافلة ومعراجها...»

وقالوا وقد سرى إليهم لحن الجفوة منه : «أقلّ علينا اللوم يا ابن أمنا ولا تؤاخذنا بتقصيرنا في أنفسنا. فوالله لقد ذكرتنا حلم «عقيل» : ليس أشهى من أن تلدوا في الفضاء وتهدهد عقولكم الريح وتسمروا في أهداب الأفق. ووالله، لولا متاهة هذا النفق الرمادي لقلنا إنه مازال بنا فضل صبوة تجترقنا لاستكمال مقطوع الرحلة وحشاشة من شوق دفين إلى سنام المعراج. لكن أخبرنا هل ترى يبعث حيا من حجرة شهوة الموت وشرش رجليه طين الخطيئة والنسيان ؟ وكيف ينبجس من ثنايا الانقراض وسنين الركام ؟

أمرداس لأنت منا كالرائد للرحى فادع ربك يلهمك حولية الانبعاث وأراجيز الخلاص من قبضة غول العدم».

\* \* \* \*

في منقطع شعبة من شعاب الوادي خرج إليه من خبائه ركب طويلا كمحراك الأتون متخفيا متلفعا ببرده الرمادي الخلق منقبضا. كان دأبا يأتيه بياتا. بدا من تلكه أنه أرتج عليه واستغلق عليه القريض.

وكان الآخر يجتهد في إقناعه بأن لا فائدة من العقد أكثر على السر بعد ألف عام من السقوط في مجاهل الهاوية لكن تابعه كان يبغضهم لأنهم رموا به وصاحبه إلى حضيض العتمة وسراديب العدم وأنه شيطان الشعر الوحيد القابع في الهاوية حتى خلا إلهامه من البهجة : «ولم أشفق عليهم ؟ إكانوا قد رفقوا للنضوب الكلمات حين تقع على شاطئ لساني وضيق العبارة في سبحة الصدر وجذب الصور حين تهوي من مخيلتي جافة عليلة عجوزا. قد كان هذا المخيال غضيرا فتبيس. وما لهذه العبارة تلد عقيمة وتنشأ عرجاء برصاء مرهأ مسحاء ؟ فمن أي معين امتح اليوم بعد أن ثوت الواحة الوحى. لقد كانت فيها العبارة تطفح جياشة وتشد وأجراسها تحتد وبالألغام تمتد، فإذا هي جحود إلى الأعماق ترتد وحطام مسود. لهفي على فورة الإلهام حين يتبرج لك الكلم فتصطفي أعذبه. فأني حلم مع الجنّة ؟ وكيف الصفح ؟ ثم هبني أوحيت لك بسر الخلاص والخروج. أفمقدّر أنت ما هو حال بنا وكيف المصير ؟

— قدر الأنبياء الغداء ولا شأن للواحد وإن كان قبسا من الآلهة. وإنما حلية الوجود العطاء. وإن مثلنا مثل نفيس الخزرة تزين العقد تقع منه فلا ينفرط العقد.

— أتصهّد ثم نذهب جفافا من أجل أن يبعثوا ليستكملوا رحلة هم قطعوها وما كنا لها بقاطعين ؟... أفنحن الأولى بالبقاء أم من سكت من الميزان ؟ أفنحن الأولى أم من صمت عن «عقيل» يسفح دمه وتمزق أوراده ويهاب أتباعه ؟ ثم هبنا السبيل لخروجهم يسرنا. أترأهم مبصرين ؟

— خذ بيدي نسعدهم ونهيء لهم دروب الخلاص  
— أظن أنك عابر بهم جسر الخلاص ؟ إنني أرى قدرهم متحيراً مبهماً  
شاحباً !...

— خذ بيميني نطلعهم على شوق الحياة وربى النور.  
— تالله ! إننا لو فعلنا لخاسرون !.. أنفضي بسر عاهدنا روحه القدس أن يظل  
نزول الكتمان. إننا إذن لمحرقون.  
— لا مناص. وليكن. إنما لأجل الرحلة. سنكالم المعراج. سنلتقي غداً في الأفق  
سأقول لربي. ما كان لي أن أراهم يخطون.

\* \* \* \*

— أتذكر يا شعيب يوم حشرنا. ثم عدل بنا من طرف الوادي إلى ممرات لا  
نعرفها، وقرأ على الصخر تعاويذه فانشق الصخر وأسلمنا إلى الصحراء وكان  
يدفع بنا صائحا ونحن نخرج لاهئين : « إلى النور يا ..... إلى الرحلة يا فضل  
الكناسة ! » وحين التفتنا بعد جوازنا رأينا يصعد عموداً من نار، ثم دخاناً، ثم هباء،  
ثم لم يعد شيئاً. واستقبلنا الغرب وقد التأم الصخر يهوي بكله عند الصفاة على  
هامة سقيطة بين السدر والطلح والغضا ينبع سبعا حزينات غاق. غاق. غاق...  
مولاي يا رزاق... غاق غاق غاق... غادروا الأنفاق... غاق غاق غاق... يا وجع  
الفراق... غاق غاق غاق... هامتهم اشتاق...  
— بلى ولكأنني بمرداس يشد وعيناه على الغراب أو كمن ينجي طيفاً أو  
يودع روحاً منه :

لم يعد ما يحتسى، كلما ازددت من النبع اقتراباً  
ازددت أسي ورأيت الأرض باباً  
ورأيت الأفق شبكاً مكدى...  
قلت للقادم أهلاً، لم يعد ما يحتسى  
بلغ اليوم المساء، والعمر في الضياع ولّى  
— وكان يقول : « من فصل الدمار ينشأ فيض الحياة ومن طقوس الصكب يطلع  
الأحوان وشقائق النعمان ومن نيران أنفاسي يحيا ميت البراكين »  
— بل أذكر معه سنين التيه يوم أسلمتنا الصحراء إلى الضياع. أتذكر يوم  
مسرانا وكنا نتحامل على أنفسنا جوعاً هلكاً حين فاجأتنا قوافل لصوص الغرب  
وأقادت ما عندنا ؟..  
— وطفقت النواشب تنتشر كالزرد، وكنا خرجنا لتونا من الظل، فاعشى

أبصارنا النور وبهرنا الشعاع. فنحن عمون. وقرحت أجسادنا الشمس...

— تانك النكبثان لم تكونا العمري إلا كالعرض الفاني وليس أشد عليّ من تقرح النفس. يوم استدنيت القفأ ونادينا أن انظر في هذه الرمال هل ترى من آثار لقوم سابقين! قال: «وأحر قلباه، يا ويلتنا لقد سبقنا القوم إلى ... بأشواط». هذه أقدام قوافل مرّت منذ سنين». قلت: «وأنّى نسبق وكُنّا السابقيين؟» قال: «كان حينما كنّا في ظلّ وادي الموت ناثمين». قلت: «الآن استبانّت الظلة التي كانت تمرّ من فوقنا ونحن نشرب أفق الوادي. هذه خيالات القوافل تمرّ حثيثاً وتقطع عنّا خيال الشمس. إن هذا الخبر لنعيّ أفزع من سقطة الوادي. فكيف لنا أن نلحق بركائبهم ولمّا يدركوا سنام المعراج. إنّنا إذن لخاسرون!...»

— وتناوبتنا الرزايا ودُهينا بالبأساء وقطع عنّا المطر حتّى كان يوم جاءنا البشير بقول: «إنّي آنست خضرة في شعبه من بطن ذاك الوادي فهلموا نصّب منها لعلّها رحمة من لدن ربّ العرش». فلمّا نفشنا فيها أصبحنا كأنّنا مقعدون وكان في أرجلنا خدرا فنحن في كلّ خلو نساقت على وجوهنا مكبين حتّى استطالت علينا القوافل من كلّ فجّ لما رأوا كم كبوتنا واستباحوا حرثنا فهو لهم رزق وغلّبونا على حقنا فنحن أغراب في أرضنا ريعها لهم لا نقدر على ردّهم وهم الغالبون. هي ذي أصوات دواليبهم ونواكيرهم وطواحينهم تنفّس في شرايين أرضنا وتشرب رحيقها ونحن لهم رقيق مستعبدون.

— لولا ذكرت يوم دعوت بجمعكم في دار الندوة نتدارس كيف صرنا إلى العمى بعد أن كنّا كالعقبان حدة نظر وكيف دبّ الخدر إلى أرجلنا بعدما كانت مكينة في الأرض ثابتة كالخالص الفكر وكيف اهتدت هذه القوافل التي لم تكن شيئا إلى العمل بالدواليب والنواكير... أتراها... أتراها... سنام المعراج... أترانا بعد الفجيعة نقوى على الشمس ونسرج القافلة لميلاد يوم جديد؟ ونعبر إلى ضفّة المعراج... أترانا ننهض بعد كبوتنا وتستعيد الرّجل ثباتها؟...

وتقطّعت أمركم بينكم وتفرقتم شيعا وقال فريق منكم إن هذه السقطة إيدان بأنكم حلّتم عن العهود وعطلتم الحدود وضربتم الشهود وغرّبتم الأذنين. وباعدتم الأقربين. ما كان السقوط لولا أن خلف لنا خلف أثر زيف هذا الأدنى وفرط في التعاليم. فليست هذه القافلة ببالغة سلّم المعراج إلّا أن تنتثني على أعقابها إلى الواحة علّنا نصيب في معاهدها الطريق إلى سنام المعراج.

وقال فريق: «بل كان عقيل فيض الفكر والحكمة قتل غيلة في النهار المبصر والعدد غير قليل. يوم نظر الواحة تغيض فنادى فيكم: أيها الملأ إن صاحب الأمر فينا على غير هدى يحكم بالهوى، وليس لنا إلى الانتصاف منه سبيل لا يردّ فضل

رَبُّنَا إِلَيْنَا وَيَسْتَخْلَصُهُ لِنَفْسِهِ. يَقْدَمُ الْوَضِيعُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْدَنِيِّ عَلَى السَّنِيِّ. وَشَأْنُ الْوَلَايَةِ أَنْ يَقْدَمَ فِيهَا عَلَى الْكَفَايَةِ وَالْغَنَاءِ لَا عَلَى الْمِيلِ وَالْهَوَى» فَأَشَاعَ الْمَلِكُ النَّدَاءَ فِي طَلَبِهِ وَأَنْ مِنْ أَشْخَصِهِ سُوْعٌ مَلِكُهُ وَأَقْطَعَ مَالَهُ. فَمَشِيَتْ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ سَرَاعًا فِي قَتْلِهِ وَقَدْ أُنْزِلَ الْحَرَصُ أَعْنَاقَكُمْ وَجَنَّتُمْ بِهِ وَأَعَوَانُهُ مَوْثِقًا مِنْ خِلَافٍ وَهُوَ يَقُولُ: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ عَقْلِي لِلَّهِ؟» وَقَامَ أَعَوَانُهُ دُونَهُ وَمَنْعُوهُ قَاتِلِينَ أُنْتُكُمْ طَائِفَةٌ عَادِيَةٌ إِنْ كَانَ فَاقْتُلُونَا بِهِ. وَقَالَ قَاتِلُهُمْ بَلْ سَيْنَالَكُمْ مِنَ التَّضْرَابِ وَالتَّطْرَادِ مَا بِهِ تَعْدِلُونَ عَنْ تَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا. أَهَذَا يَقُولُ عَلَى مَلِكِنَا وَأَلْهَتُنَا مَا لَيْسَ بِهِمَا وَلَا يَزَالُ يَجُولُ بِكُمْ فِي سَفْهِهِ وَأَنْتُمْ لَهُ نَصِيرُونَ؟» فَاحْتَزَّوْا هَامَتَهُ وَطَوَّحُوا بِهِ فِي الْوَاخَةِ. وَبَكَتْ أُمُّهُ غَمًّا بِهِ وَتَخَضَّرَتْ عِيُونُهَا وَاحْضَلَّتْ وَجَعَلَ النَّسْوَةُ يَتَرَجَّيْنَهَا وَيُنَاشِدْنَهَا قَائِلَاتٍ: «اللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ !!! لَقَدْ كَانَ عَقِيلٌ ذَا عَقْلٍ وَخُلِقَ وَقَدْ فَجَعَتْ نَفْسُنَا بِفَجِيعَةٍ مَا أَصْبَنَّا مِنْهَا عَوْضًا. وَمَا عَزَاؤُنَا فِيهِ إِلَّا بِالْمُضِيِّ إِلَى الْأَمَامِ لِنُعَانِقَ عَقْلَهُ هُنَاكَ عِنْدَ سَنَامِ الْمَعْرَاجِ. قَدْ نَكُونُ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ إِلَى السَّلَمِ، وَقَدْ نَكُونُ فِي مَنْتَصَفِهِ، نَحْنُ سَائِرُونَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ هِيَاهُ الْارْتِدَادُ إِلَى الْوَاخَةِ اللَّعْنَةِ، هِيَاهُ أَنْ نَبْدَأَ الرَّحْلَةَ مِنَ الْوَرَاءِ.... احْتَرَقَتِ الْوَاخَةُ وَلَنْ نَبْعَثَ إِلَّا رَمَادَهَا وَلِئِنْ كُنَّا قَدْ أَضَعْنَا نَصْفَ الطَّرِيقِ، فَذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ الطَّرِيقَ كُلَّهُ.

وَاعْتَزَلْتُمْ طَائِفَةٌ وَقَالَتْ: «عِنْدَمَا يَتَنَاهَى الشَّطَطُ فَيُخَيِّرُ الْأُمُورَ الْإِعْتِدَالَ فِي الْوَسْطِ. وَلَعَلَّ الْمَعْرَاجَ يَكُونُ شَمَطُ الطَّرِيقِ فَتُزِيحُ فَضْلُ الْمَسَافَتَيْنِ، سَيَمَّا أَنْ أَرْجَلُنَا ثَقِيلَةٌ وَالْبَصَرُ مَنَا ضَعِيفٌ وَالْجَسَدُ وَاهِنٌ مِنْ أَثَرِ الْمَلَامَاتِ وَالْفُظَاةِ الرَّزَايَا» وَعَقَدُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ تُضْرَبَ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أُنْثَى شَاءَتْ فِي الْأَرْضِ، بَيِّدَ أَنْ الْمُلْتَقَى لَنْ يَكُونَ إِلَّا وَاحِدًا، سَيَكُونُ مَجْتَمِعُهُمْ عِنْدَ سَنَامِ الْمَعْرَاجِ فَيُثْبِتُونَ الْوُثْبَةَ الْحَقَّ، الْوُثْبَةُ الَّتِي تَعْتَقُهُمْ وَتَسْرِي بِهِمْ إِلَى فُضَاءِ النُّورِ وَالسَّنَاءِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَهْجَةِ الْمَعْطَلَةِ بِالطَّيْنِ. وَتَجَزَّوْا مَالَهُمْ وَزَادَهُمْ وَعَدَّتْهُمْ وَعَتَادَهُمْ وَقَدْ اصْطَنَعَتْ كُلُّ قَافِلَةٍ فِي الْمَسِيرِ هَادِيًا يَهْدِيهَا. فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ النَّجْمَ مَنَارَةً وَمِنْهُمْ مَنْ اسْتَدَلَّ بِالْذِّكْلِ، وَفِيهِمْ مَنْ أَزْمَعَ الْأَسْتَرِشَادَ بِبُوصْلَةٍ عَتِيقَةٍ. وَضَرَبُوا فِي كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، وَجَابُوا الْفِيَا فِي وَقَطَعُوا الْوُدْيَانَ وَغَرَّبُوا وَشَرَّقُوا، وَأَدْخَلُوا وَأَمْسُوا وَأَصْبَحُوا وَصَعَدُوا وَصَوَّبُوا، وَأَدَامُوا التَّرْحَالَ وَعَكَفُوا عَلَى التَّسْفَارِ وَالتَّسْيِيرِ وَكُلٌّ يَأْمَلُ أَنْ يَكُونَ إِلَى الْمَعْرَاجِ سَبُوقًا، حَتَّى اسْتَوْفَوْا قُرُونًا فِي الْبَحْثِ. وَأَفْضَى بِجَمْعِهِمُ الْمَسِيرُ غَدَاةَ يَوْمٍ عِنْدَ حَقْلِ مِنَ الصَّخَرِ وَطَلَعَتْ كُلُّ قَافِلَةٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، مِنَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ وَمَا بَيْنَهُمَا. وَشَكَّوْا إِلَى بَعْضِهِمْ أَفُولَ النُّجْمِ وَعَمَى الذِّكْلُ وَعَقَارِبُ بُوصْلَةٍ أَتْلَفَهَا الصَّدَا... وَاسْتَقْبَلَهُمُ الْغَرَابُ وَقَدْ انْفَتَحَ الصَّخَرُ يَهُوِي بِكُلِّهِ عِنْدَ الصَّفَاةِ عَلَى هَامَةِ سَقِيظَةٍ بَيْنَ السَّدْرِ وَالطَّلْحِ وَالْغَضَا يَنْعَبُ سَبْعًا حَزِينَاتٍ: «غَاقٌ غَاقٌ غَاقٌ... مَوْلَايَ يَارَزَّاقُ...

غاقُ غاقُ غاقُ... عادوا إلى الأنفاق...  
غاقُ غاقُ غاقُ... مطاطني الأعناق... غاقُ غاقُ غاقُ... ما ركبوا البراقُ.  
وأدركوا أن سنوات التيه ستمد أجيالا في قوافلهم فالجهم سنى الرؤيا عن  
مرارة الحديث وما زالت قوافلهم تبحث لها عن سمت الرؤية في كل أفق.

ناجي الفرشيشي



## هذا المطر الذي أبصره الآن

مصطفى الكيلاني

### 1 - جزّار بيدين ناعمتين

حلاق الأمس لا يصمت أبدا... يسألني ليُجيب.

حلاق اليوم لا يكلمني... لا يسأل، ولا يُجيب.

حلاق الأمس يُقهقه عادةً.

حلاق اليوم إن سعد بحضوري ابتسم.

حلاق الأمس عاشق مجنون وطبيب مداوي.

حلاق اليوم جزّار بيدين ناعمتين.

### 2 - مشهد

شريط السيارات المزمّرة يعبر الشارع الرئيسي... طبل وزُكّرة وزغاريد يكتظّ

بها المكان.

في الاتجاه المقابل حشد كبير من مشيعي جنازة يتّجه إلى المقبرة القريبة.

يلتقي الجمعان... تتوقّف السيارات... يعمّ الصمتُ المكان... تمرّ الجنازة...

تستأنف السيارات الحركة، وترتفع في الأثناء أصوات الطبل والزُكّرة والزغاريد...

### 3 - إلّا كرسي واحد

كلّ الكراسي شاغرة تبكي صامته في انتظار من يجلسون عليها إلّا كرسيّ

واحد يضحك في صمت هو الآخر، لأنّه شاهد آلاف الأشخاص الذين جلسوا عليه،

ثم سقطوا.

### 4 - لامبالاة

أسرابُ نمل تمضي من الحديقة إلى البيت، ومن البيت إلى الحديقة... ذباب

يطاير... قُطُطُ تتشاجر... ساعي البريد يدقّ جرس الباب... تفتح عجوز لاستلام

رسالة... كل ذلك يحدث، والطفل الرضيع نائم.

### 5 - ضحك هستيريّ

استلقى على ظهره من شدّة الضحك. تكلّب على جليز القاعة...

سأله الطبيب مستفسرا :

— ما الذي يُضحكُك ؟

أشار بإصبعه إلى أحد الممرّضين الذي بدّله أحول لأول مرة بعد شهر كامل من الإقامة في مستشفى الأمراض العقلية.

6 — يشبه من ؟

— أنظر ! ألا ترى أنّه يشبه والدي تماما ؟

— لا أظنّ، بل يشبه والدي أنا.

— عيناه لا تدلّان على ما تزعم.

— جبينه، أنفه، أذناه تؤكّد عكس ما تزعمين.

— تأمل جيّدا ! يبدو لي أنّه يشبهك أنت.

— ربّما، ولكنّ الأقرب إلى الصواب أنّه يشبهك أنت.

— بل أنا متيقّنة الآن، وأكثر من ذي قبل، أنّه يشبهنا، نحن الإثنين معا.

7 — خدعة سنمائية

عين مفعّوة على الرصيف يلعب بها طفل جائع... جنّدي يهرب من ظله.

تصريحات وزير جديد... عمارة شاهقة تنهار في لمح البصر... شريط سنمائيّ

بتقنيات عالية جدّا يخفي مخرجه الحقيقيّ الذي تحصلّ على أموال طائلة مقابل

إنجازه العبقريّ وسافر عاجلا إلى جزيرة مجهولة نائية حسب الاتفاق.

8 — ماتبقى من سيجارة هالكة

مقهى في آخر الشارع بلا جلاس. الكراسي شاغرة. كؤوس وقوارير فارغة هنا

وهناك... لا أحد في المكان سوى مرمدة ينبعث منها دخان ماتبقى من سيجارة هالكة.

9 — غياب الحكم

الملعب هائل في حجم الكرة الأرضية، والمتفرّجون في عدد النمل،

واللاعبون بالملايين، والكرات بالآلاف، والهتاف زلازل...

المقابلة شرسة في هذه المرة، ولكن ينقصها شخص واحد أثر التغيب عن

الحضور، هو الحكم.

10 — مطر داهم

المطر الذي أبصره الآن من نافذة غرفتي حبال مائية تلتفّ بي من غير أن

أتبلّ... هو الشارع قفّر إلّا من آخر السيارات قبل أن تضاء السماء بأول البروق

ويزلزل الرعد ما تبقى من الذاكرة.

مصطفى الكيلاني



## العوالق :

## أرض الذكرى (3)

## فؤاد سيالة

يلوك قلبي سؤالاً محيراً : «لماذا لا أرحل ؟ لماذا لا أندس في غيمة تبعدني عن المرارة وكلّ ما يأكل جثتي ؟ وهل يكفي الرحيل كي تنمو أغصاني بسلام ؟ سيلح الماضي على الحضور ولن أخرج من العتمة. سيظلّ التردد يلazمني حتّى يغيب الماضي، بتفاصيله، في الماضي... ويسقط الأب من خيالي، أبي الذي قضى حياته مهاجراً وكانت أمي تلتقط ذكرى رحيله بشيء من الأسى والمحبة. وكنت لا أشعر بقرابة عائلية نحوه. فملاحه غير مكتملة في ذهني. ومع ذلك فقد كنت، أحياناً، اضطرّاً إلى إكمال صورته من بعض النصوص المدرسية لكي أبدو أمام أقراني طفلاً متزناً لا تنقصني صورة الأب وخياله، وإن كان ظل أبي موجوداً في الجانب الآخر من الكون. ذاك الجانب الذي كانت السنن القروية تلحسه بلفظة «الخارج» والتي كانت تعني تحديداً «فرنسا».

أصدم أمي بقرار الرحيل ؟ أوقف آلامها القديمة النائمة في كل بقعة من خلالي جسدها، أنا الذي عرفت كم عانت ؟

لم تحدثني أمي عن أبي الذي احتاج ليسترنا إلى التحوّل إلى «الخارج».. كنت صغيراً لا أعرف من الأسماء سوى «سيالة» و«تونس» وكانت والدتي تأخذني معها إلى الحمام ولا تتحدّث كثيراً. فوالدتي لم تكن لتمشي وحدها إلى ذاك المكان الذي كانت المسافة إليه تأكل من حياتنا نصف ساعة أو أكثر ركوباً على الأحمرّة. كنّا نسير في قافلة نسوية. نشقّ طريقنا عبر المسالك اللوعة، بين صفوف الصبّار. ونعبر بحذر شديد الوادي العريض. وكانت أمي تشدّني إليها بقوة كلّما صعدنا الضفّة المرتفعة للوادي، مخافة أن أنزلق من على ظهر الدابة.. وعندما نلج مزارع القمح واللفت السكرّي، تتكاسل الأحمرّة وتبدأ في التمرّد والعصيان. وتعجز الحبال والعصي الجافة عن ثنيها عن الزيغان إلى حافتي المسلك الترابي، وقضم ما

طال من الزرع الأخضر الطازج. وكنا نغتنم حرون الدواب لنقتلع «التيفاف» و«البوحلية» ونظل نعلكها على طول الطريق.. وعند الناعورة، نتوقف لترد الدواب الماء ونبلل أطرافنا، وبعدها، نواصل طريقنا محاذين شجر الصنوبر إلى أن نبلغ الحمام...

الآن، تتجلى كل الأشياء أمامي بوضوح. حتى الماضي البعيد يتكشف في أعماقي بتؤدة.. ينبثق رسم الحمام في ذهني رويدا رويدا.. حذاء الحانوت حيث كانت والدتي تقتني لوازم الاستحمام والحلوى.. على بعد عشرات الأمتار من موقف الحافلات القادمة من باجة وجندوبة.. قريبا من تلك الصخرة السوداء، الضخمة، التي صقلتها المياه الساخنة سخونة طبيعية.. صخرة «أم دارب» ذات التجويفة المظلمة التي أحدثتها المياه المناسبة...

لماذا أتذكر، الآن، كل هذا؟ لماذا يلحق ذاكرتي الماضي البعيد، يشدني إليه بقوة المجهولة، فيما النفس تحدثني عن الرحيل؟ أفرز زفرة أولى.. والثانية أرخي لها حبال الصوتية حتى تنزل كالصاعقة تدك أركان المعمل وما فيه...

غير حامد أسلوب تعامله معي.. حاول أن يخفي عني مهمة بعض الأجزاء. لا يريد تمكينني من معاينة أسباب العطب. وإذا ما حدث ذلك أمامي صدفة يبعدني عن الآلة بكيفية ما، كأن أملا خوف العاكنة بال: «بي، في، س. P.F.O» فأرفع الكيس تلو الكيس وأصبه بعصبية. لقد طفح الكيل.. لقد طفح الكيل..

وفي نواحي القلب قرص لا يتيح لي أن أسترسل يجلدني بقوله: «أنت كأجرب يهزمه منكباه. فهل ستقضي العمر متوجسا؟». أعرف هذا الصوت الباطني الذي يريدني أن انتقاد للعاصفة.. أبدا، ما أنا هكذا.. ما عدت أنصت لهذا القرص وأطيعه.. سالم الثريبي الذي كان سعيدا في بلده قد مات.. ليس أنا.. ولست هو.. كان يملك أشياء أفقدها لا شيء لي.. المرارة ما أملك.. وبالهجرة قد أستعيد ذاتي وأقربني مما كان لي...

وتمدت ذاكرتي فطالت العمق.. أحسست أنني أغوص في سماء تمطر شواظا من نار.. عندما تأتي الأيام الصيفية تتقدم نحو أمي المنشغلة في التقاط سنابل القمح، وتمدها نسائم الأمل فتروح تحلم وتخلق طويلا في السعادة رغم الشقاء. في الصيف يعود المهاجرون ليشتموا روائح الأرض وتعانق أعينهم بيوتا ظلت عالقة في الذاكرة.. بيتنا، الذي كان، لا يختلف عن عشرات البيوت النائمة بين الحقول.. أركان من طين وسقف من زنك مثبت بالحجارة وأشياء أخرى يقل استعمالها.. تعمد أمي، في الشتاء، إلى نشر التبن عليه كي يمتص الصوت المقلق الذي يدك آذاننا، عند سقوط المطر، فيحرمننا من النوم.. بيتنا، الذي كان مطليا

بالجير الأبيض ويغلب عليه اللون الأخضر من أثر رقاع الجلة اللاصقة على واجهاته الخارجية. يتصاعد بخار الطرية منها تحت تأثير أشعة الشمس الحارة. واليابسة قد تكومت قرب الطابونة.. هو الفحم الذي تجيد أمي صنعه، بمهارة، من فضلات الدواب.. وللبقرات الثلاث والحمار الوحيد والدجاجات التي لم أعد أتذكر عددها بيت واسع.. وبعيدا عن «الحوش» مندر التبّن.. وفي نفس الاتجاه «حوش» عمّتي «أمينة». وربما نسيت كثيرا من التفاصيل.. غير أن تلك الأماسي التي يعود فيها أبي من الغربة تلوح متألقة ولذيذة. يضيء وجه أمي فرح طفولي وهي تنقل إلى أبي أخبار القرية وأحوال العيال. تظل تحكي حتى الصباح بشهية مضاعفة.. شهية بريء مدّان لم يسمح له بالدفاع عن نفسه، صمت طويلا حتى كاد يختنق.. وكنت أتملى هذا التحوك في وجه أمي وتصرفاتها فلم يخطر ببالي أن أطارد ملامح أبي وأحبسها في ذهني.. كنت أحب الصيف.. داخل نفسي أتذوق حلاوة أيامه وأعيش لياليه.. وصيف هذه السنة، صيف التوتر والقلق والفوضى المزرية، حضر باكيا وانتهى، تلعّغ دكنة توجع القلب.. لم أر القمر الصيفي متفتحا كعادته. لا هو جرى وتلاّ ولا الأحداث هيأتني لاستقباله.. كنت لاهيا أتطلع في وجه «علي الدرماسي» باندھاش، أحملق فيه النظر ببلاهة :

— أحقا ما تقول ؟

فيحرك رأسه مؤكدا الخبر وينقلت بخياله بعيدا.. ويبقى الصدى وحده يفجر اللوعة والألم.. «يوسف الصادق اختفى والشرطة تبحث عنه».. لا دخل لي في السياسة.. فأنا، سالم الثريبي، لا رأي لي ولا وجهة نظر.. حيادي أنا ما أسمع له لا ينعكس على مرايا أحاسيسي وما أراه لا يثير ما في شراييني.. ولكن الآن، صعب عليّ أن أسمع الفاجعة ولا أألم.. غمرني إحساس عنيف بالعذاب.. اشتدّ في نفسي صراع قاس بين شاب لا يروم ولوج السياسة وشاب يدغدغه ماضيه فيتعذب.. تراءى لي ماضي كله.. أعادت إليّ هذه الحالة ذكريات الطفولة.. خيال أبي المغترب.. وصورة أمي وسط الحقول وقد كومت أمامها حزمة الحشيش وعلى وجهها عرق ممزوج بذرات التراب.. وجه أمي كوجه خالتي السيدة، والدة يوسف الصادق.. كان أبي مهاجرا.. وكان العمل قد أغرق أمي في المزارع وأكل زندها.. وكنت صغيرا أحتاج إلى من يعيد لي أبي المهاجر.. وحنان أبي المهاجر.. كان كل ما في يصرخ طلبا للمساعدة.. نظراتي الحزينة وصمتي الطويل.. كنت أحتاج إلى من يمسح دمعي بأنامله ويعيد الابتسامة إلى وجه أمي الشاحب.. أمي التي أكل النعاس عينيها وهدّ التعب جسدها.. رأيت في خالتي السيدة صورة أمي وهي تبحث عن رجلها الغائب، عن سندها المتين، فتدخلت عندي الفصول، واستعر في

قلبي الخوف.. كنت خائفا مضطربا والواجب يسكن أوجاعي.. خالتي السيدة، الآن،  
مثل والدتي في الماضي لا رجل لها.. يجب أن أكون بقربها.. أن أمدّ لها ذراعي  
أسندها.. لم أتركها تشعر بما شعرت به أمي في الماضي.. لم تشعر أبدا أنّها وحيدة  
وأنّ الدنيا من حولها سواد...

أدخلت يدي في جيبتي وأخرجت ما كان معي من مالٍ مددته إلى «عمر  
بالشّاوش»، الذي اكتسحت الكتابة جسده. قلت له :

– أرجو يا عمر، أن تزورها وتقدّم لها هذا.. قل لها إنّ قلوبنا معها.

لم تيبس حوادث الأمس البعيد قلبي واحتفظت بمحبّتي للناس... أنا، سالم  
الزبيبي...

فؤاد سيّالة



## المرض

### سونيا يوسف

مرضت بمرض بسيط اسمه الحساسية.. ولا أظن أحدا لا يعرفه أو حتى لا يسمع عنه.. فقد بليت بهذا المرض وبرهط يدعون الطبّ ظلّوا يعطونني دواء غير ناجع فترة من الزمن سلخت أثنائها رجلاي عشرات المرات.. والتهمت كثيرا من الدواء دون جدوى إلا ما يهيئهما للانتفاخ إلى أن تأتي ساعة الانفجار لتسيل منهما مادة لا لون لها مثل ماء ينسكب من شلالات جحيم إذا كان للجحيم شلالات.. فلم أعد أستطعم شيئا ولم أعد أستمتع بشيء ولم أعد أعرف الراحة.. رجلاي ينقعان.. يضبحان.. يؤكلان.. وأحكهما وكلّي رغبة بأن يشاركني العالم بأسره في ذلك «الجرش» إلى أن ينقلب فجأة إلى حريق ولهب.. يقرص.. وينهش.. ويخز.. إلى أن تصير رجلاي كأتون جمر من جهنم.. وكأنها نار موقدة جمعت كلها وزجت داخل رجلي فما يسعني إلا أن أقلب الصرخات إلى تسبيح حتى يغلبني النوم بعد أن أخذ آخر وصفة.. وأصحو في اليوم التالي لألتهم أول وصفة أملاً في شفاء طال انتظاري له منذ سنين.

تعودت على مسح رجلي بأرطال من القطن المغموس في دواء وهمي كالماء ويختلف أحيانا.. فأما يحرق وكأنه ماء النار.. وأما يمسك فوق الجراح كالصمغ بل كالكلب الذي يعض غريمه بغل.. فتنطبق أنيابه على الجلد المسلوخ واللحم المهترئ والعظم الهش الذي هشهشه ألم الداء وقلة الغذاء فكل شيء أصبح مرّ المذاق بعد أن حذرني الناصحون بأن أبتعد عن أكل السمك والدجاج.. والبيض.. واللحم المطبوخ.. والمصبرات.. والحليب المعب.

وبما أن ليس لي إلا القليل من هذه الممنوعات وليس لي غيرها.. فقد هزل جسمي.. وشحب لوني من شدة ماضاق به صدري من الإفراط في تناول الدواء مع قلة الغذاء.. ومقتي لألوان الأدوية من أصفر يغمس بقطعة قطن.. وأحمر فوق طبقة من المرهم.. وبنفسجي يوضع في لتر من الماء الغاتر.. وأزرق أرش به قدمي رشاً.. أو أبخ به الجراح بخاً وادهانات أخرى سئمتها حتى الموت.. وسئمت معها نفسي..

وأهلي.. وأولادي.. وعملي.. وبيتي.. وزوجي.. وعمري بأسره..

حتى مرتبي لم أعد أفرح به إذ لم أستنفع منه بشيء لا لباس.. ولا بهرجة.. ولا إدخار.. ولا شيء من هذا القبيل.. فهو من نصيب الداء والدواء لاغير.. إلى أن عرفت بين أهلي ومعارفي بأنني أعاني من داء طال واستحال دواؤه.. وغرقت في فترة سنك بين شامت.. ومشفق.. فلم يعد في استطاعتي سد كل هذه الأفواه.. المرض مافتئ في تقدم مفزع.. والدواء في غلاء دائم إلى أن أضحت الحياة عندي نكدا.. وقرفاً وإزعاجاً.. وقد صح علي قول الشاعر في القديم :

ألا موت يباع فأشتره فهذا العيش ما لاخير فيه

خشيت أن أتهم بالجنون.. أردت وضع حد لاستغلال الدجالين.. فاعتكفت فترة صبر وتجلد.. ومنعت نفسي بنفسي عن تجرع أي دواء إلا قليلاً من الحبوب المهدئة.

فتحت في حيناً عيادة طبيب يكتب شهادته بالعربية وكان هذا غريباً وجديداً علينا. وجهني إلى أستاذه في الطب مع رسالة شرح له فيها تصوّرات مرضي منذ سنوات بعد أن أدرك شدة معاناتي وبعد أن تعاطف معي.. وقرر أن يساعدني على تخطي محنة العمر.

وحين زرت أستاذ دكتور المفضل في عيادته رحت أقص عليه رحلة حيرتي وعذابي منذ سنتين.. وكان معي زوجي فراح يهز رأسه بين الحين والحين مصادقاً على كل ما أقول. شعرت أثناء حديثي بتأثر بالغ بدا في رده علي.. وهو يطلب مني أن أجري تحليلاً في عيادته.. وبما أنني لم أمهله حتى يكمل ما أراد قوله، راح يقنعني بجدوى التحليل.. ويؤكد لي أنني بعد دقائق فقط أخرج من عيادته ومعني الدواء الناجع.

وفي اليوم الموالي وقع بالضبط ما وعدني به، أعطاني اسم مرهم ثمنه معقول : بعد أن قال لي : «كلي أي شيء يعجبك واغتسلي بأي نوع من الصابون يتوفر لك. وسلمي بكامل يدك هكذا». وهو يصافحني بلطف وقد لاحظ شدة تخرجي حين المصافحة واضطراً فأمد أطراف أناملي أو حتى أطافري فقط..

سألته متى أعود له ؟.. فردّ مندهشاً : «ولم العودة إليّ؟».. هذا الدواء سيسيفيك بإذن الله، وعلى كل حال إذا أردت المجيء فمرحباً بك.. ولكن ثقني بأنه سيسيفيك !!.. وفي لحظات دار في خاطري تحذير الأطباء لي من أن أبعد عن كل أكل يزيد من تفاقم المرض عندي وقد نسواً بأنني أعيش على قليل من الخبز والحليب وبعض أنواع الجبن والقليل من اللحم المشوي هذا إذا بقي شيء من مرتبي، ومثل أي عائلة متوسطة الحال، فإن مرتب زوجي مقسم من قبل أن يقبضه

بين كراء المنزل والمعيشة وفواتير الماء والكهرباء والغاز والدروس الخصوصية، وبعض الأمراض الطارئة لزوجي والأولاد.. فيطير مرتبه لنبقى هكذا بين السندان والمطرفة.. وتذكرت الطبيب الذي نهرتني.. تذكرت ماذا قال وهل أنا نسيت حين رأى في رجلي حذاء محليا.. لأنه يزيد لي الداء. وأمرني أن أشتري حذاءً أوروبيا يزيد ثمنه عن نصف مرتبي لأنه لين وطري..

خرجت من عيادة أستاذ دكتورى لأشتري المرمم ودهنت رجلي قبل الظهر بقليل وأصرّ زوجي أن يحضر لي طبق الفطور بنفسه وكأنه ينتقم معي من الداء والظرف التي مررنا به معاً.. وأكلت بشهية وودعت فترة «الرجيم» وكأنني كنت مسحورة...

ومرت حفنة من السنوات ومازلت أذكر كيف صافحني الطبيب بحرارة محاولاً إعادة الثقة إلى نفسي بعد أن شعر بأنني حدثته بصدق ولوعة. وأذكر أنني وعدته صادقة بأنني سوف أحكي قصتي لكل الناس.

سنيا يوسف



---

ملاحظة : كتبت في 10-10-1986 ثم روجعت بعد قراءتها في «نادي القصة» في سبتمبر 2006.

# متسع للضياع





## عربي : «واعطاه الباى احسان !..»

يحيى محمد

.. الشيخ العربي رجل تجاوز العقد الخامس بقليل، خلفه والده على رأس مشيخة القرية التي تجري في شرايين الأبناء والأحفاد «أبا عن جد» في قرية الزاوية الخضراء.. التي بها كتاب سيدي محجوب الذي تخرج على يديه الشيخ العربي وأضرابه. الشيخ متعلق بالمشيخة من صباه كما قيل له، طويل القامة، أسمر اللون، واسع العينين، تحت أذنه اليمنى «وشام البرني» أو طابع العشيرة الذي عرفت به من زمان، طبع به يوم ختانه وهو ابن سبعة أيام جرياً على العادة لأصول وفروع «عرش العربي».. عرش أصيل والشيخ متعلق بأصوله إلى النخاع.. انهالت على عرشه الهدايا والعطايا والنياشين من كل جهة إذ له مع الأبهة والاستعلاء مشاوير طويلة.. لا يقنع الرجال في هذا العرش بزوجة واحدة، ومورد رزق واحد، تأتيه الثمار الشهية قبل أن تزحف على الناس، الخرفان في العيد وفروع الحجل والسمان في الربيع، المولدي عونه الأمين عين مفتوحة بالليل والنهار لا يكتسب غير «حماره الأفطش» يستعمله للتنقل لقضاء حاجات الشيخ.. وللشيخ زوجته الأولى «فهيمة» ابنة عمه «الناطقة الفاتقة في الحوش، وفهيمة قصيرة القامة سمراء ممثلة شحما ولحما، وزوجته الثانية «نصيحة» كان يهواها قبل ابنة عمه، هيفاء، بيضاء البشرة، دعباء للعيزين، لم يخلف منهما منذ سنين.. وذلك مايعتمل في داخله من هم وغم قد يطول أو يقصر، ولكن الشيخ له جولات وصولات أخرى اهتم المولدي بفتح مكتب الشيخ في الصباح الباكر، لتنظيفه وترتيب شؤونه، يمسح الاطار البلوري الكبير الذي به «وسام الافتخار» لجده، يضعه فوق رأس الشيخ إذ كلما دخل مكتبه يتأمله مرات ثم يردد : إن شاء الله العاقبة ليك يا شيخ العربي ! ويتجه المولدي نحو الإطار الآخر وبه : (يافتاح رزاق) يمسحه المولدي مرات ثم يتجه إلى «مقصورة المكتب» يرتب لوازمها وهو يتنهد ويضيف : «نواصي وعتب والبعض من الذرية». ويتجه المولدي صوب المرأة الكبيرة يتأمل فيها وجهه الشاحب وقامته

المحدودة، يتنفس بملء رئتيه، يتأوه ويكرر بامتعاظ : «وين مشى عمرك يا مولدي» ؟. ثم ينتقل إلى المخزن الكبير يفتح بابه على مصراعيه.. يُخرج حصان الشيخ على عجل وهو يطلق نحنة طويلة فرحة بخروجه في هذا الصباح الجديد، يطأطي رأسه يرقصه كثيرا، يعرب عن فرحته بهذا الصباح كعادته كل يوم إلى أن يأتيه عندما يشرع المولدي في تنظيفه وارتداء «سرجه» وحين يشرع المولدي في إكساء الحصان بالسرج الذي اختاره يكثر من قفزاته البلهوانية في حين يصر المولدي على تلطفه شيئا فشيئا حتى يطل الشيخ العربي فجأة عندها يطمئن مستعدا لجولة صباحية كعادته.

● يدخل الشيخ العربي إلى مكتبه متفقدا شؤونه، متأملا الصور والزراحي المبتوثة وكتابه المفضل «غراميات يزيد» الذي يتصفحه عادة آخر المساء وهو جالس أمام المكتب في أكبر ساحة بالقرية متظاهرا بالمطالعة في حين يحضر المولدي «براد الشاي الأخضر المنعنع» ويمده بالكأس تلو الآخر، حتى إذا حل ضيوفه توقف عن المطالعة وهو يردد :

— صحة وفرحة... صدق من قال : أغرم زمانك لا يفوت !

... في منتصف الطريق يقف رهط من أعيان القرية يتقدمهم «سي العجمي» تاجر القرية.. يحيط به النوري ورابع والمرزوقي.. ينطق العجمي ويرقب كلامه ملتفتا نحو النوري قائلا : «إيه.. في كل سوق تحل باب العرش ؟»  
يتساءل المرزوقي : «وما دخل الباب بموكب الشيخ العربي ؟»  
يضيف رابع : «عربي وأعطاه الباي احصان !»

رمى الشيخ العربي، الجماعة بنظرات ساخرة، ووجه نظراته إلى كل من هب ودب في القرية، بطرفة عين، وتلك خيرة دقيقة جدا ورثها عن والده وجده عندما اقترب موكب الشيخ من الجماعة، وقف محببا إياهم بحرارة. ولكي لا ينطبق الكلام على ما جسّمته الملامح قال العجمي متسائلا : «لقد تأخر ركبك يا شيخ إن شاء الله المانع خير ؟»

بعد أن بلغ رفيقه أجاب الشيخ : «العمل شاق.. والواحد بُنية ضعيفة..»  
رد - رابع - بذكاء : «الحق معاك يا شيخ الواحد عينيه فيه وإن شاء الله يسلم !»

.. ظلت كلمات رابع تتردد في ذهن الشيخ العربي، وهمس في داخله : «..الواحد إن شاء الله يسلم منكم يا -رشامة- أصحاب صنعة أب على جد، العجمي «صنّاف في الكلام عرّاف، يشعل النار ويقول الدخان منين ؟» لا.. لا.. الشيخ عارف كل شيء ياسي العجمي المشيخة ثابتة «مثبتة» في عرش العربي من

زمان!« فجأة سأل الشيخ العجمي قائلاً: «كيف أسعار السوق اليوم والزرابي كثيرة اليوم يا سي العجمي؟»  
بعد تلعثم وسبق لسان رد العجمي باقتضاب: كيف العادة يا شيخ.. كيف العادة!..»

واصل الشيخ بصوت مرتفع: «لكن أسعار الزرابي مرتفعة اليوم...؟»  
— ارتفاع الأسعار في كل شيء وأنت تعرف يا شيخ.  
— أنا قلت الزرابي يا سي العجمي؟  
— أي نعم!.. سلعة جديدة وخدمة متقونة!..

أشار الشيخ إلى الجماعة مودعا وهو يتفحص ملامح العجمي ويردد هامسا:  
«والآن، كيف حالك يا عجمي يا تاجر الزرابي المعروف؟.. توغل الشيخ في مسارب السوق.. وهو يرد على التحايا.. والمولدي في المقدمة كالعادة يفتح الطريق أمامه. والموكب بين الرهبة والفرح. أصوات أجهزة الراديو والمسجلات مختلطة بأصوات الباعة. الأوساخ تحيط بالمكان من كل جهة، الازدحام على أشده، والعيون شاخصة نحو موكب الشيخ العربي. حصانه الجميل، السحابة المزركشة تقي قامته ورأس الحصان. في حين يظل المولدي عاري الرأس وكذلك وحماره.

الشيخ العربي قطع من العمر ما قطع، يعطيه من الخيرات التي تنهال عليه. دوره أن يضع الهدايا والعطايا في مخزن الشيخ.. المولدي لا يهتم أثناء جولة الشيخ في سوق القرية إلا بملامح الشيخ وحصانه وبالناس يحصي بكل كبيرة وصغيرة.. يقف الحصان فجأة أمام جمع من النسوة، تتقدم «الخضراء» نحو الشيخ بعد أن أشار لها وهو يبتسم.. الخضراء امرأة هيفاء القوام، فارعة نحيفة تمول مجموعات عديدة من العاملات في البيوت بكميات من الصوف لغزله وإعداده.. «طاقيات» للنسوة.. الخضراء يبتسم لها الحظ دائما، لها مكانة خاصة عند الشيخ تأتيه بالأخبار وتزوده بها صدقا أو كذبا عن كل من سألها لايهمها غير ابتسامة الشيخ واستمالاته.. خاصة منذ أصبح الدرعي البهلول زوجها غير مهتم بها.. الدرعي نفسه يخدم الشيخ في بعض مهامه لمعرفة واقع المهمشين في القرية أمثاله.. فالشيخ لا يترك شاردة ولا واردة تفوته. والشيخ العربي معجب بالخضراء وبقوامها الفاتن وهو يحتفظ لها بعشق خاص يقسطه في شح مخزون حتى يتسنى له منحه لها داخل دكانه على مراحل. الخضراء امرأة لعبة محنكة تعرف أنها أمام رجل محنك صاحب خبرة يعرف كيف يمتطي حصانه، يركب الشيخ الحصان كل صباح ومساء في جولة خاطفة بين أنهج القرية ويسير المولدي أمامه يفتح له الطريق كالعادة، يقف الشيخ بين الغينة والأخرى عند مجموعة من الناس، يترنح

قليلًا عندها يشير إليه بعضهم بالتحية فيختار رده على من يستحق منهم.. في الأثناء يهمس من لا يعجبه هذا الشيخ المتصابي بحديث خافت :

— ماذا يصنع هذا الشيخ في جولته صباحًا مساء ؟

— شيخ البلاد وما أدراك. اعرف أش تقول ياسيد!

— الشيخ عربي زادو الباي حسان ؟

— صحة ليه اللي يشقى يلقي !..

— لا.. لا شقاء ولا عذاب المشيخة تنبري لاصق في عرش العربي..

للشيخ العربي كلمة لا ترد عند أهل العقد والحل وهو يعرف كل دار بشيوخها وبنسائها وبأولادها وبأحفادها، يعرف الحسب والنسب والفروع والأصول.. الخضراء تأتيه بأخبار النساء في القرية وأشباه الرجال وتعطيه ما تريد وتحجب عنه ما تريد.. والشيخ يحفظ تقاليد القرية أصولها وفروعها وهو ملم بالكبيرة والصغيرة.. هو يكر رقولته أحيانًا...

● «أنا شيطان الزمان.. واللي يخاصمني ما زالت أمه ما ولدتوش !..» !

وضع العجمي والنوري والمرزوقي في نفس الكيس، لا يهتم بنكاتهم وخلواتهم ولقد تطوع — رابح — من زمان لنقل فضائحهم إلى المولدي لحظة بلحظة :

— الجماعة ديمة في «لمتهم» كل ليلة ؟

— الشيخ متهني بيك يا رابح الله يريحك.

— الجماعة في صحفة غسل العجمي !..

— الشيخ يعرفه بالتفصيل وحسابه طويل..

— الدرعي — زوج الخضراء مخلص وفي للشيخ يتقن دوره بذكاء، يدعي البلاء والغباوة والشيخ يغدق عليه المال والأثاث والهدايا وهو يواصل التملق إليه.

.. اليوم يوم مشهود في القرية.. يوم قرعة العسكر.. الصفوف متراسة أمام مكتب الشيخ.. بعض العجائز والآباء يترجونه «أن يعمل جهده لإنقاذهم» والشيخ لا يسلم بكل ما يسمع ويصيح بأعلى صوته.. «العسكر قبل كل شيء !.. البلاد بلا عسكر أش كون يحميها يا ناس !» لكن الشيخ العربي يدرك ما يعانيه الناس في القرية انتبه الشيخ إلى وجود العجمي والمرزوقي في الصف الأخير صحبة أولادهما فابتسم وقال هامسًا «الناس الكل في الصف !.. اقترب من العجمي، حياه بحرارة مصطنعة فرد العجمي قائلاً : «البلاد بيك يا شيخ نجمة عالية في السماء !» رد الشيخ شاكرًا : «هذا من حسن أخلاقك يا سي العجمي وأنت يامرزوقي

أين ولدك الكبير؟

قال المرزوقي في شموخ : «في حماية سيدنا الباي.. يقرأ في تونس!»  
— ربي ينجحوا إذا قرأ مليح!..

ظل الشيخ برهة يمسح العرق بمنديل بين اللون من فوق جبهته التي تلمع، متظاهرا بالتعب والارهاق، والمولدي يهمس بين الحين والآخر في أذنيه.. يستمع اليه الشيخ بكل انتباه، ثم يطأطي رأسه ويشد على يده شاكرا الشيخ يمشي بين الصفوف عارضا نيشانه الافتخاري المعلق على صدره. لا أحد في البلدة تحصل على مثله. يرمقه العجمي بنظرة احتقار خفية ويحدث زميله المرزوقي بنظراته «يوم ليك، ويوم عليك يا شيخ!.. دوام الحال من المحال.. عربي وأعطاه الباي حصان، أغطس وعم في الرشوة للعنكوش.. دور صوابك في كل شيء حتى يوم الكشف!..» ظل المرزوقي يتمتم في سره وتبادل النظرات مع العجمي حتى نهاية موكب القرعة. الجمع الحاشد على أمل معرفة الأوامر التي ستصدر في الأيام الموالية يظهر الدرعي مرددا بصوت رقيق : «..نواصي واعتب.. والبعض من الذرية!..»

● عندما تتجه الخضراء إلى دكان الشيخ يهرع المولدي مخبرا إياك بقدمها.. تدخل الخضراء مغلقة الباب خلفها. يقف الشيخ مرحبا بضيافته الهيفاء.. يضمها إلى صدره ضمة شوق تجلس قبالة وتشرع في إعطاء الشيخ ما يرغب في سماعه من الأخبار عن العجمي وصحة. يسجل الشيخ ملاحظاته في كراسه «دفتر العجائب والغرائب» كما يسميه للرجوع إليه عند الحاجة. تقص الخضراء تفاصيل القصة والشيخ يسجلها بخبرته في تلخيص المعلومة المفيدة عند الحاجة يدخل الشيخ مع خضراء في حديث آخر من همس الجفون، ولكن الخضراء تنهزب معتذرة مؤجلة تأجج العواطف إلى الوقت المناسب وتغادر الشيخ على أمل العودة قريبا.. يتبعها المولدي متمنيا أن لا تعود هذه «السوداء» — كما يلقبها في سره — متأسفا لحال الدرعي زوجها : «مسكين أنت يا درعي العجوزة هاززها الواد وتقول العام طهمة!»

.. حين يعود الشيخ العربي إلى داره الفسيحة الغرف والساحة يقف وسط الحوش حيث النخلة العالية التي ما انفك جده يردد تحتها مقولته : «كل طويل خاوي إلا النخلة والمرغاي..!» لم يفقه المثل خاصة كلمة «المرغاي» إلى حين تزوج زوجته الأولى ابنة عمه «فهيمة» كانت تهابه كثيرا رغم أنه فوض لها كل الشؤون... أما زوجته الثانية «نصيحة» فهي أصغر من الأولى وأجمل. ومع ذلك فالكلمة المسموعة لفهيمة غير أن الشيخ يتصرف إزاءها تصرف المالك في ملكه أعطى مفتاح «مخزن العولة» لزوجته الأولى مدققا أوامر التصرف، وهي حسب

إرادته وكما يشاء.. وفهيمة ابنة عمه ممثلة لأوامره المجحفة في الغالب، لكنها تشعر بسعادة لأن الشيخ ميزها عن «نصيحة» التي لا تتصرف في شيء.. أما المولدي العون الأمين فهو المسؤول عن خارج المنزل.. مكتب الشيخ ومخزن الحضان، ومخزن العولة وقبول النوري.. جاء النوري ذات مساء بأربعة أكياس من القمح هدية للشيخ فقبلها شاكرا وأدخلها المخزن دون أن يدري المولدي أن الهدية من العجمي تاجر الزرابي الذي بينه وبين الشيخ العربي مشاكسات كثيرة.. عندما عاد الشيخ إلى مكتبه. سأل المولدي عن عامة شؤونه فأخبره بأمر الهدية فثارت ثائرة الشيخ وصاح به :

- مصيدة يا مغفل !! النوري من أصحاب العجمي وجماعته !!..
  - أنا خالي الذهن يا سيدي النوري قال هذه من ثمرة الحصاد هذا العام !!..
  - هذي غلطة كبيرة يا مولدي.. والجماعة يريدون إيقاعي في حباتهم !!..
  - حاشاك يا سيدي حاشاك.. الله يهلكهم ويحفظك !!..
  - هاهم حشوني بمنجل حامي !!..
  - .. في الأثناء جاء أحد أعوان مصلحة الفلاحة لمقابلة الشيخ.. رحب به وأدخله مكتبه.. وبعد الخوض في مسائل عامة تهمة القرية وظروف الحصاد هذا العام.. سأل العون الشيخ العربي :
  - هل وصلتكم هدية مصلحة الفلاحة يا شيخ ؟
  - أية هدية هذه ؟ (بعد تعلثم وجيرة) <http://Archiv>
  - أكياس القمح التي أتى بها النوري هذا اليوم !
  - وما علاقة النوري بالمصلحة ؟
  - مجرد واسطة استعملنا المجرورة التي استعرتها منه للضرورة.
  - بارك الله فيكم وسلملي على سي المدير وكل عام حيين بخير !!..
  - دهش الشيخ للخبر وتخلص من الانقباض الذي ركبته منذ حين وقال
- ساخرا :

«.. اللي يحسب وحدو !! يخلط ويقسم ويشارك الناس في أموالهم !!..»  
جلس على كرسيه أمام مكتبه مرتاح البال مرددا : «الشيخ العربي أعطاه الباي احصان، واللي عندو ريح يذري عشرة !»

يحيى محمد

## عروس العمر الرذيل

بسمه شوالى

-1-

ضربت مطارق صقيلة على جنوب الجلد المشدود. تقلعت الأقدام من مغاوص التلوج وتيممت موضع الطبول. غاضت السماء ثلجها بعد هطول أيام عصبية ورقّت مدارج الصفاء اللافح تفسح للشمس في نزهة مشتهاة، وتشهد الجرافات وهي تقشر الدروب المغطاة وتهوى الحياة الجائمة تحت الأسقف المتلجة. انخلع بالضجيج المفاجئ قلب العجوز النائمة في كوخها المظموور فتدلى من أذنه المدّمة تلقاء الخوف وزاغ بها الهجوع إلى ميد كالدار الخفيف يزاول وعيها المشتور. شخر في الخارج المسوى ثور كنيز وشخب دمه الراف يسبح فائرا على جليد الثرى فيديب صفحته الشقيقة، وزعزعت له حناجر مبحوحة راعشة. تخلل أحلام العجوز المضطربة نداء يخفت حيناً كهاتف يتنزل من عل بعيد أو يحشرج مخنوقاً كأنما يصعد من سفلى عميق..

«عيوشة.. عيوشة..»

انحشرت بالقرع، مقربة الكوخ، النعال المرفوة على ضوء المصابيح النقطية الذأوية، والوجوه المرمدة من لذع الصقيع، يتهافتون بالفضول على المواويل القديمة تجتحيها من قعور النسيان حبال صوتية أبلتها الأشتية القارسة، ويتساءلون عن الجمع الغريب وفدّ باكرا على منطقتهم نساء ورجالا ملتفتين في معاطف وثيرة، يلتقطون الصور لكل ما حولهم، وتضرب لأجلهم الطبول..

كان الفرح يدف في المنطقة شبه المبسوطة المسوكة بجرافة عملاقة فيوقد في الركب المصقعة الحركة الجامدة، ويرقص الأفراس المجلوة فتخشخش عقود الخرز في أعناقها، وسلاسل الفضة على أجنحتها، وقطع النحاس المهذبة من الوكف المطرزة.

استشرت دبكة الأقدام ومرج الضجيج حول كوخ العجوز القريب من مسرح المناسبة. تزاحم الناس على أطراف الحدث المباغت فمار نبض الراكدة العليل،

وَعَمَهُ سَمْعُهَا الْغَائِمُ مَشْتَتَاً بَيْنَ غَفْوَةٍ وَصَحْوَةٍ.. أَحَسَّتْ عِيُوشَةُ الْأَرْضَ تَرْجُفُ وَتَتَهَزْهُزْ فَتَقْفُفُ فِي مَضْجَعِهَا.. رَأَتْ الْجِبَالَ الْمُحِيطَةَ تَسِيرُ عَنْ مَرَاسِيهَا فَاحْجَرُهَا تَتْقَارَعُ وَتَتَنَسَفُ.. تَدَانِي الْهَاتِفُ يَرُدُّ اسْمَهَا بِحَدَّةٍ فَتُلْعَلُ عَيْنُ الْأَسْمِ فِي الْبَقَاعِ الْمَفْجُوعَةِ وَتَرْمِيهَا شَيْئُهُ بِشَرٍّ كَشَوَاطِ الْجَمْرِ..  
«عِيُوشَةُ.. عِيُوشَةُ..»

رَدَفَ قَلْبُهَا الْأَرْضَ الرَّاجِفَةَ مَنْتَفِضَا فَرَأَتْ الْوُكَافَ يَمِيلُ بِهَا عَنْ ظَهْرِ الْجَوَادِ الَّذِي رَكِبَتْهُ مَلْتَحِقَةٌ بِزَوْجِهَا وَيَسْقُطُهَا مَرُوعَةٌ عَرُضُ الضَّجِيجِ الْمُسْتَعْرِ وَالْعِيُونَ الْبَارِدَةُ وَالْخَوَافِقُ الْمَبْهُوتَةُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ فَجَاءَةً عُرُوسًا تَتَحَنَّى فِي مَسْقُطِهَا بِالْوَجْلِ وَهَضَاضِ الْحَصَى الْمَدْقُوقِ.. صَارَتْ تَصْرُخُ مُسْتَجِيرَةً فِيغْصُ صِيَاحُهَا بِكُتْلِ الطِّينِ اللَّبْدِ وَيَتَخَذَرُ عِنْدَ مَخْرَجِ الْحَلْقِ.. لَمْ يَبْسُطْ لَهَا أَحَدٌ نَجْدَةً وَتَرَكْتَ أَرْضًا بَيْنَ السِّيْقَانِ الْمَغْلُولَةِ إِلَى مَوَاطِنِهَا، وَالْأَعْنَاقِ الْمَثْبُتَةِ بِأَقْمِطَةٍ تَدْفِي رُؤُوسَهَا وَتَحْدُ أَبْصَارَهَا نَاحِيَةَ الْجَمْعِ الْقَادِمِ إِلَيْهِمْ مِنْ رِفَاحِ خِرَافِيٍّ. كَانُوا فِي نَوْمِهَا يَزْدَادُونَ حَوْلَهَا عِدَاً وَبَهْتًا، وَيَهْجُجُ الطَّقْسُ حَوْلَ الْجَمِيعِ مَطَرًا وَرِيَا حَا مُوَكَّرَةً تَقْلَعُ بِيُوتَ الْمَدَرِ الْمَرْصُوفِ عَنْ أَسْسِهَا، وَالْأَشْجَارُ عَنْ مَنَابِتِهَا، وَتَقْلَعُ الْبَابَ مِنْ عَقْلِهَا.. ثُمَّ اخْتَلَطَ حَابِلُ الصُّورِ بِنَابِلِهَا وَانْقَطَعَ إِرْسَالُ الْحَلْمِ بِرَهْمَةٍ مِنَ التَّشْوِيشِ اقْتَحَمَ بَعْدَهَا الْمَنَادِي نَشِيشَ الْأَنْفَاسِ الْمَتَسَارِعَةِ..

«عِيُوشَةُ.. انْهَضِي.. أَنْتِ حَيَّةٌ.. أَنْتِ حَيَّةٌ!..»

خَشَعَتْ رَأْسَهَا صَوْبَ النَّدَاءِ الْمَتَنَاسِلِ..

كَانَتْ تَغْرُقُ فِي بَرَكَةٍ وَاطِنَةٍ مِنْ ضَحَى رُقَاقٍ اِنْدَفَعَ إِلَيْهَا مِنْ فَتْحَةِ الْبَابِ الْمَقْتَحَمِ بَلَا إِنْ تَنْهَالُ عَلَيْهَا الْعِيُونَ وَالْأَصْوَاتُ وَرِمَاحُ أَضْوَاءٍ سَاطِعَةٍ وَتَكْتَكَةُ غَرِيبَةٍ..

عَثَلَ بِهَا الْهَلَعُ حَتَّى نَسِيتَ تَفَاصِيلَ الْغُرْفَةِ مِنْ مَسْكِنِهَا، وَنَسِيتَ أَنْ تَتَأَوَّهَ مِنْ وَجْعِ السَّقُوطِ عَلَى يَبَاسٍ قَصَمَ ظَهْرَهَا فَوَاصِلَ مَلْتَهَبَةٍ. وَارَتْ وَجْهَهَا عَنِ الضَّوِّ كَفَأَ نَاحِلَةُ الظَّهْرِ مَعْرُوقَةً، وَأَذَعَنْتَ بَلَا حَوْلَ لَا يُدْ رَفِيقَةً مَجْهُولَةً تَهَاوَتْ تَنْتَشِلُهَا مِنْ ذَهُولِهَا الْمَتَفَاقِمِ شَاخِصَةً نَاحِيَةَ الْحَدَثِ الْمُقْبِلِ تَظَنَّ أَنَّ الْقِيَامَةَ تَسُوقُهَا بِلُطْفِ الرَّحْمَانِ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ..

—2—

انْسَحَبَتْ عِيُوشَةُ مِنْ رُواقِ ظِلْمَةٍ غَطَشَاءَ مَقْرُورَةٍ تَتَقَلَّبُ عَلَى جَمْرِ الْحَطَبِ فِي الْمَوَاقِدِ الْكَبِيرَةِ الْمُشْعَلَةِ احْتِفَالًا بِلِيلَةِ الْمَكْتُوبِ الْآخِرَةِ بَيْنَ أَضْلَعِ الْمَسَاكِينِ الْفَقِيرَةِ. النَّدَاءُ يَصْدِي مِنْ جَدِيدٍ فِي أُذُنِهَا وَطِيفَ الْمَرْحُومِ يَتَعَقَّبُهَا أَنْتَى جَلَسَتْ.



كانت السماء بيضاء تهدهد سحباً ناصعة كتلج مندوف، وتنتثر قرأ لا ذعاً  
ندياً يردُّ على الرُّؤوس المغمَّمة المتفاكهة.

لم يكن يجدي أن تستأذن المبتهجين بالدخول إلى منزلها. لا أحد سيقصُّ  
غيابها لو ركنت نفسها جانباً معتماً من وهج الحياة. ابتسمت فلعلقت موارج النار  
الوقود زرقاة البرد على شفثيها الذاكوتين. يكفي ما تشعر به الآن من فخار، لقد ظلت  
حتى السن الأخيرة في سنّها في مقدّمة الأحداث تحتل الكرب عن أبنائها وتعذل  
لهم مجريات الأمور بحنكة العمر الطويل.

الناس غمر مسرور يربو سعادة بالدف والنقّ والرّقص وصليل المفاتيح،  
ويغيب امتناناً لأولئك الضيوف الطيّبين. أبنائها الذين تكبدوا في زيارتها  
المسافات الشاقة والدروب المثلجة يتكاتفون حول النار والشواء، يعرّكون شرائح  
العجل المفسوح بالمناسبة المذهلة، ويغافل أحدهم الآخر ليسطو على طابق وهمي  
في المسكن الجديد. النساء يهجرن مضاجعهن وينهمكن في فك الصرّ وفتح  
صناديق الخشب وحقائب الجلد البالي فيخرجن ما شرّين وأخفين عن أزواجهن من  
تحف ومواعين وستور وفرش لم تبد. كن يشتغلن متحمّسات في تجريد الزوايا من  
صخبها وروائحها وزينتها، وينتقين سعيدات حالامات من الأثاث والدرج ما يليق  
بمسكن عصري من جليز وحديد، ثابت لا تهزّه الرياح ولا تهدّده السيول الجارفة،  
مرفّه يستضيء بزر ويستسقي من الجدران. وكانت عيوشه، منذ انتهاء مراسم  
توزيع المفاتيح على المنتفعين بالمساكن الجديدة، تلقى إحدى يديها خلف ظهرها  
الأخفج، وتسند مشيتها الأوداء إلى عصا غليظة كثيرة النتء، وتسهم بنظراتها في  
سما المجاهيل، القادمة، وتجول، في غفلة من المسرورين بالرحيل، بين أحواض  
الخضر وشجرات الثمر وأكوام القش. تكفكف دمع الجدران النخرة ونحيب  
الزرائب الشائكة ومرابض الأنعام المسوقة بعد كدح إلى مجازر المدينة البعيدة أو  
شجار السكاكين ذات القربى.. كانت تزور المكان الواحد مرأت متتاليات فتهنر  
كلمات مكرورة وتأتي أفعالا ممجوجة. تعثر بصخرة أو حصاة هيئة أو جذر ناتئ،  
فتكب أو توشك وتعادل العثرة ذاتها بعد برهة قصيرة..

كان الذي مرّ يوماً رهقاً غريباً لم تختبر له شبيهاً في سنيها السبعين. فاجأها  
نهارها نائمة فظلت حتى زواله لا تميز بين صدقه وضغته. لم تعد تذكر كيف سقطت  
عن فراشها فرفعت من مبركها أسفله وأخرجت من منزلها. كان الغرباء أحفياء بها  
جداً، تتناوبها أحضانهم، تتلقفها ابتساماتهم، ويتناوبون النقاط الصور معها.. لم  
تفهم جلياً كل ما حدث. قال أحدهم إنها معجزة اللحظة أن تبقى عجوز في سنّها حية  
بعد موجة الثلج العاتية الأيام المنصرمة. وأحد البدناء مسح تعشيبات الشعر

المتفرقة على رأسه من رواسب الجليد الصباحي، وتأبطها فضاغف معطفه من حجمه وأضال وجودها النضو إلى جانبه. كان يعمن التصاقا برثائتها أمام عدسات التصوير الكثيرة. وكانت مثل المضاف المزري كلما كان فصيح السداجة شره عليه المصورون وتهافت المتأنقون على إضافته إلى شربة وجوهم قلب الصحف وعناوين الأخبار.

فاعل الخير البدين ذاك، قال متوجها إلى كميرات التصوير إنه جدُّ جدُّ سعيد بالعثور بين هؤلاء المنتفعين الطيبين على امرأة مكافحة في سن السبعين وإنه جدُّ أسعد بتسليمها بنفسه مفاتيح منزلها الجديد.. ثم علا التصفيق من كل صوب ثلجي وحذب وعز، وسيقت العجوز المبهوتة من عدم الفهم المحبب كبلهاء إلى قلب المناسبة السعيدة..

-3-

أبكرت عيوشة الصباح الموالي تستعد للرحيل.

تمنطقت : فتائل من حرير في صفرة الذرة تصدها حمرة خفيفة، مخيطة بخيط أرجواني تنتشه البلى. لفت حول وسطها الحزام لغتين ليشد الملاء المخططة إلى الخصر الضامر وتستنير أسلاكها الفضية المنتوفة تحت نهار جدلان يزخ عليها من خلل الثقب والشقوق.

تقرطت : حلق كبير لكل أذن يهدل رؤيتها ويفتح فيها شقا يقيس سبعة عقود من الزمن فيهن خمسة زواجا. عقدت غطاء الرأس المورد عند منبت الشيب على هيئة عصفور مهيب مستنفر الجناحين، وأسدت خصلتين على جانبي وجهها يحقان شحوبه ببياض أرمد. تسورت سلسلة سقطت دوائر فضتها في الحجر تشخشخ. ضربت الخفين فردة بفردة وانتعلتهما. هما صيفيا النسيج ولكن الرجل الطيب، لم تعد تذكر اسمه، وعد بنقلها حصرا في سيارته تحت تكتكة الأضواء وحسد الأجوار وتصفيق الآخرين. رفلت العجوز في حلة العرس التي ظلت تحتفظ بها حتى الهرم من حسن لم يبق منه سوى مقاطع الوشم المخضرة على الجبين والذقن المتقبضين. طوت الصرة الخالية وألقت بها في قاع الصندوق وبقيت تنتظر المصورين.

حزم بقية السكان الأمتعة والأثاث واستقلوا ظهور الحمير والبغال والعربات وظلوا على استعداد وململة ينتظرون إشارة الانطلاق ليرحلوا عن الأكواخ المقفرة إلى مساكن جديدة في حي عصري لا يحتمل ثغاء ولا خوارا ولا قوقا. عبد الله الطبال اشترى ما وسع جيبه من الأغنام والطيور الداجنة بأثمان بخس ووعد بمحل

في الحيّ الجديد لبيع اللّحوم الحمراء والبيضاء. أحد الخيرين تحدّث عن مصنعه الجديد في النّسيج وغازل الصّبايا الحالما بأمانيات التّشغيل والأجور الجيدة. وإحدى الشّعراوات أطنبت في التّعنيّ بسحر الطّبيعة الجاثمة تحت ركّم الطّلع ووشوشت كثيرا لمرافقها، بما سمعت العجوز ولم تع، عن مشروع استثماريّ تنوي إنجازه في المنطقة..

قفّ البرد الصّباحيّ جلد العجوز فشاك ورعدت مفاصلها. كانت سألت أحد الغرباء الطّيّبين :

— يا ولدي إن كنتُ سأهجر دجاجاتي وهذا الجحش اليتيم أفلا أحزم بعض الفحم والحبّط معي ؟ البرد شديد وعظامي نخرة.  
ابتسم حامل المصدق لجهلها الجميل وطلب أن تعيد الجملة نفسها برنة الفقر المغربي لمشاهدي نشرة الأخبار المسائيّة.  
قال جدّلا على قاب قهقهة :

— كلاً. كلاً. في المسكن الجديد ماء جار بين يديك في أنابيب، وتيكار كهربائيّ. وبيننا فاعل خير سيهديك مدفأة كهربائيّة. أنت عروس الحفل يا أمّي عيوشة سلكي تجابي.

أفحم الجهل شفتيها المقصّفتين. لم تفهم وجاهة الفرخ المستغيّض يُرعد هذه الذّقون الممتلئة والخدود المتربّرية، ولا جدوى هذا الخير العَرَم. لماذا يسمّون منزلها كوخا ؟ لم تجده يوما ضيقا، ولم تشكّ في حياتها نصب الحياة وعسر العيش. كانت قائمة، تحبّ كلّ الدنيا مختزلة في دوح الصخر الذي تسكن وتمتّن لّله كثيرا بما أنعم.. لم تشكّ إلّا بعدُ الأبناء.. تنهدّت عميقا فرصدت الكاميرات صدرها المرتفع المنخفض وهررة الهواء في حلقها، وبرق الظفر في عيون الخيرين بينما تركت الخيرات حبيّيات من الدّمع النّاعم تنحدر على خدودهنّ المحمرة وتُصوّر.. شعرت عيوشة بالخجل. لم تقصد أن تُحزّن ضيوفها. لو قدموا إلى حوشها سنة واحدة قبلا أو فصلين سالفين فقط لفاح الخبز في تنوّرها، وبقيق مرق دجاجاتها في القدور.. لكن.. منذ نَعَمَت الأحلام على أذقان الأبناء، تفرّقوا عنها خلف الأرزاق في المَدَن البعيدة وصاروا يتعلّقون بأعمالهم متحاشين العودة إلى الكوخ الحقير.. ثم مات أبوه..

— لكن يا ولدي، قالت كالمستجدية، دعوني مكاني واحملوا لي الماء والكهرباء حيث منزلي، أو استبدّلوه بأحسن منه حيث هو إن شئتم، لا أريد مغادرته. المنزل قبر الحياة يا ولدي، إذا غادره العبد نهشه الضّياع. لا طاقة لي على الغربة في هذا العمر..

انقضت عليها فجأة أحضان الأبناء يعانقون ويقبلون ويعلون أصواتهم بالضحك والنكات ويحفظون المنتفعين على التصفيق والهتاف بحياة المانحين الكرماء.. فهمت عيوشة هذا السرور المرتبك. تقدمت تتسلم المفاتيح وترسم بصمتها المرجفة أين شاءوا. دعت عبد الله الطبال فطبل وغنى وهزج الحاضرون. تحاملت على خواء ركبتها فرقصت تنقل قدميها بصعوبة وتلوح بالمفاتيح في الفضاء الناصع. تحلق حولها الأبناء، يرقصون ويغنون ويرفعونها على أكتاف الشكر والامتنان، ورقص كل من به ألم الرحيل. ابتسمت ذوابات الجبال الكاسية بياضا. ترنحت أغصان الأشجار المثقلة ثلوجا. التمع الصبار المثلج يغازل عدسات التصوير. تبرجت الأكواخ والبيوت المتبعثرة في فتنة البياض فكانت كاللؤلؤ المنثور. ترقرت المساحات العجاف متمددة تحت شمس رؤوم ترسل الدفء زخات حانية شفيفة. وتسابق المصورون والمحاربون على رصد الصور الجميلة وتدوين تفاصيل البهجة وهمسات المبتهجين..

كان يوما غريب الأطوار..

علقت عيوشة سلسلة المفاتيح على مسمار مدقوق بجدار متقشر واضح لعيان الأبناء. وولجت مضجعا تستدفي ريثما يقدم المصورون والمصفقون لنقلها.

القطعة المقرورة تنكفي على ذيلها غطيطة وتلتصق بذاكرة النار المسودة على خواف جمر منطفئ. الأثاث النزير يتوزع ببساطة عجوز حذقة. دنان الماء مقعية في ركن كثيب والحمار ما لبث ينهق. الدجاجات وصغارهن احتلن غرفة المنزل ومطبخه العامر بطعام الليلة الفائتة. امتاجت آلام مفاصلها. سقوطها من فراشها صباح الأمس رض عظامها وكاد يقصم ظهرها.. عاد طيف المرحوم يحوم حول مسجائها.. أبناؤها في الخارج يترصدون لحظة الانطلاق. أناخ ظهرها لذكرى أحمال تعاقبت عليه وحز الحبل مجراه القديم من كتفها. استذكرت قدميها لساعات البرد شتاء ولذعات التراب الحار صيفا. راجعت يزهو كدحها القديم.. أنجبت نساء ورجالا أصلح الله أعمالهم. نهضت. أخرجت من صدرها قطعة قماش ملفوفة على مبلغ مالي جمعت مما كان يجود به الأبناء من أجورهم أوائل كل شهر، وضعت النقود جانب المصباح النقطي. خرجت تفك رباط الحمارة وتسرح المعزاة. نثرت حبوبا كثيرة لدجاجاتها. لحق بها الجحش حتى مضجعا لمآدات تستدفي تحت الغطاء. دفات فأطلقت أطرافها ما استطاعت. سرى بكامل جسمها ثقل غريب وتصقعت قدميها. أصابها نعاس فغفت..

رمح برق يقلق منطقة التماس بين سماء دكناء وأرض جهماء ويلد فرسا

ضليعة شهباء هبطت مختالة تطلق حوافرها فيصدى كل من سمع التواقيع.  
خفتت الرياح الموكرة وسكن الطقس الأهوج. ظلت جدران القصدير وأسقف القش  
والطين المرصوص تتطاير في الفضاء المغبر وتتهاوى على رؤوس المرتحلين..  
اشرابت العروس الطريحة بين السيقان المتزاحمة على مشاهدة الغرباء القادمين  
إليهم من رفاة خرافي كأنما وفدوا من بلاد أعجمية.. تحاملت على ضعفها  
واستقامت خجولا منكسة الرأس، ترتب ثوبها الخلق، وتخلل أساور الفضة  
المعتكرة، وتسدل وشاح الحياء المخطط على وجه شاحب أفعمه الفرع المستجد  
ببسة طفيفة.. دانت الفرس تخب على رؤوس الذاهلين. انقشع الصمت المبهوت  
وتميز صفًا من المصورين ومراسلي الصحف والإذاعات والمصفقين الماجورين  
يلي صفًا من البطون منفوخة والوجوه البيض المشربة بحمرة النعم والشعور  
الشقراء المرسله في مهب النسيم الثلجي. اعتلت العروس بفخار ورشاقة صهوة  
الفرس المجلوة، زغردت النساء وأطلقت بعض الحناجر مواويل فرحة. همزت  
عيوشة جنبي الفرس بعقبى قدميها المقفرتين حتى الكوعين بوحل الأرض وحسك  
الأشواك العالقة. سارت الفرس صعودا إلى السماء حيث وقف زوج عيوشة عند  
مفرق الضوء والظلمة مُردانا بالبياض والسرور، مُسرعا بسمته وذراعيه.

بسة شوكلي

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

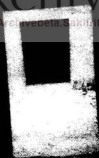
بسم الشوالی

مجموعہ نقادین



ARCHIVE

<http://ArchiveBeta.Sakifit.com>



## خلوة

منيرة رزقي

العيون الصغيرة المكتظة بالدهشة تتأمل الجبين المتغضن والخطوط العريضة التي تعلوه، تخترق الشعر الأشيب وأكداش الشحوم التي تعلو الجسم العجوز، في حين تنصت الأذن المتعطشة إلى عوالم غريبة بانتباه شديد.

هكذا هو. فارس يهجر أعاجيب الكمبيوتر وبرامج الصور المتحركة ويأوي إلى الوجه الأمن لجذته غزلان ويصغي إلى صوتها العميق ودندنتها الحنونة عندما يضع رأسه على صدرها يحلم بزمان عجيب يسافر إليه على أجنحة بساط سحري يحط رحاله هناك، زمن وديع يتنقل فيه الناس على الدواب ويعيشون على القليل من الزاد ويتحلقون ليلا حول لهب النار طلباً للدفء والأمان.

يود فارس لو يستقر في ذاك الزمن ويرى جدته شابة. تغضب الأم أحياناً من فارس الذي يهجر ألعابه وكتبه المدرسية ويقضي وقته مع الجدة.

ذات يوم قالت له : إذا لم تكف عن التصافك بالجددة فإنني سأعاقبك وسأحرمك من الفسحة الأسبوعية.

لكنه قال لها : مللت الفسحة الأسبوعية إلى حديقة الحيوان ومدينة الملاهي، إنني أروم السفر إلى زمن جدتي.

صرخت الأم : لا فائدة من عنادك، سيتقدم عليك كل أقرانك. فارس لا يفارق جدته أبداً إلا في خلوتها الليلية حيث تأوي إلى غرفتها وترتدي ثوبها الأبيض الطويل وتنقطع لمناجاة ربها، في حين يجلس فارس في غرفته الصغيرة متفكراً في هذا المخزن العجيب، من أين تأتي بهذه الحكايات والأساطير ولماذا لا يستقر مع جدته في ذاك الزمان. تأخذه الأسئلة إلى أن يداعب النعاس جفنيه.

فارس يتحرق شوقاً لمعرفة طقوس جدته في خلوتها الليلية ولماذا ترتبط المناجاة بالوحدة، لاشك أنها لحظة تعادل العمر، تختزن تلك الغرفة عوالم مقعمة

بالشوق إلى الأعالي.

تخفت الأضواء... ياوي الأبوان إلى غرفتهما ويفتح الصغير فارس باب غرفته يمشي على أطراف أصابعه ويحبس أنفاسه حتى لا يوقظ أحدا.  
يقترّب من غرفة جدته يضع يده على الجدران وعيناه على عتبة الباب.  
داخل الغرفة الجدة ترتدي ثيابا ناصعة البياض تقف وسط الغرفة ترفع يديها إلى السماء ثم تسجد على الأرض لحظة توهج، تبكي وتتعالى هممتها، ثم تجثو على ركبتيها تستدير نحو الفراش تدنو من الكوميدينو حيث وضعت صورة زوجها الراحل، تمد يدها بحنان إليه.  
تغسل الصورة بدمعها.

يلمع فارس نورا عجيبا يضيء الغرفة، تتلألأ ألوان عديدة تخطف البصر، يضع فارس يديه على عينيّه من شدة الانبهار وعندما يفتحهما يكتشف عالما غريبا، جدته العجوز استعادت نضارتها ورشاقتها واختفى الشعر الأبيض تحت غلالة من السواد وسقطت الغضون وتوهج المحيا.

الجدة العجوز في العشرين والصورة التي كانت بين يديها والتي تجسد الجد الراحل تكبر الآن... تكبر ويسقط إطارها ويرى فارس شابا في العشرين يجلس على السرير، ويسمع فارس أصواتا غريبة وضحكات لم يعهدها وتساقط ثياب على حافة السرير.

لا يفقه فارس شيئا مما يرى ويشعر بدوران في رأسه فيصرخ بأعلى صوته :  
امي... امي... وعلى صراخه الحاد تسقط الصورة من يدي الجدة وتتناثر شظايا البلور.

منيرة رزقي



## المرور عبر باب واحد

حسن مشري

كانت المناظرة التي امتحن من خلالها في تلك الصبيحة الساخنة، بمثابة الوجه المكر الذي كرهت النظر إليه.. مقولة: (شرف الإنسان في المحاولة وإعادة المحاولة) هي التي أبقت على علاقتي بظاهرة المناظرات هذه. لولاها كنت طلقت كل مايمت إليها بصلة طلاقاً بائناً لا نكوص فيه..

كنت مشدوها في تلك الصبيحة مشغول الفكر وليس لديّ من وجهة محددة. أعرف فقط أنني أنهيت الامتحان المقيت للتو، كما أعرف أن كل المسالك في هذا الشارع بالذات تؤدي حتماً إلى المحطة الرئيسية لمترو الأحياء البعيدة أو مترو الأحوال..

لم يكن شداًهي وانشغالي بسبب فقداني قيادة نفسي أو تبلداً في الفكر، بل جراء انسداد الأفق وقلة النجاحات.. في كلمة أنا إنسان عاطل، بطل والله يكره العبد البطل.. شارع بورقيبة يأخذني في شبه منحدر إلى محطة الأحوال الرئيسية، إلى المأوى الذي لا بد أن أثوب إليه.. البيت، أو حضان البيت، حضان الأب والأم.. حتى هذا الشعور تبدى لي كما لو أنه عمود فقري يبدأ بالسقوط والتهوي كلما افتقد حلقة أو مرّ بامتحان..

ها أنا أمشي وأمشي تأخذني رجلاي وتسحبني نحو الساعة العملاقة، نحو شبه المنحدر.. السير على اليمين مزدحم بسبب انحسار الظل والاقتراب رويدا رويدا من منتصف النهار.. مقهى باريس وأفريكا وكل مقاهي شارع بورقيبة لا تحدثني نفسي أبداً بالجلوس على ناصياتها.. كراسيها من الخيزران المضفور وكؤوسها وقنانيتها من الكريستال أو من البلور القاني الذي ترى فيه وجهك فتشمئز من نتوءه فتكرهه..

حتى وإن احترفت البطالة والعوافة فلن أجلس هناك.. أنا عاطل وبطل وشعبي أيضاً حتى النخاع.. ومن هنا جاء كرهى للمناظرات وإعادة المناظرات. وجهي ليس وجه نجاحات.. لكنني أرى المصححين يزورون أو يشيخون

بوجوههم كلما راوا صفحة امتحاني أو صفحة وجهي التي لا تختلف كثيرا عن وجه «الزّوم» الذي أخاف أن يظهر على كؤوس وقناني الكريستال بمقاهاي باريس وأفريكا ولونيغار وغيرها، فيصيب الجميع بالبطالة والعواقه ونبوء الوجه..

إن شكلي على صفحات الامتحان لا يختلف عن أشكال الزّوم وبالتالي ليس كغيره من الوجوه التي حالما تظهر أو تقبل من بعيد يهلل لها المصححون فتنتفتح السبيل وتثار الأفق وتنكشف قنطرة العبور..

ها أنا أمشي وأمشي ولا أعبرُ وكأنني أروح في نفس المكان.. إنني أنساق وراء مشهد وحيد لا يتغير وكأنني أنقاد إليه انقيادا.. أجساد عارية إلا من شبر من قماش رخيّ شفاف. أجساد تصدح في ثناياها شمس الصيف، تحملها سيقان بضّة طويلة تحت أنظار روابي الصدور وسرر البطون الخاوية.. أجساد كبياض الكلاب الأجنبية المدللة أو أشد..

ليس من طبعي أن أمشي أو أنقاد وراء الشبهات.. لكنني للأسف مشيت وانقدت..

الحقيقة خجلت، نعم خجلت لأن وجهي صار ينظر إليّ.. صار وجهي في قفاي.. خجلت أيضا من شيء آخر، خجلت لأنني أمشي وأمشي دون أن أعبر.. تذكرت فجأة أشياء شبيهة، التليفونات والهدايا والمحابة كانت دائما تحول بيني وبين العبور..

سرب السائحات هو الذي حال دون المضي إلى الأمام.. من مسافة بعيدة رأيت الشرطي المناط بالسلاح يشير علي بيديه أن ابتعد ويرسم لي بإصبعه الممر الذي يمكن أن أسلكه دون أن أتأذى من أحد..

أعرف المكان.. هو دائما هكذا.. حركة السير فيه لا بد أن تتم بموازاة الوزارة لا لصق حوائطها. كذا هي التعليمات.. لا للوقوف هنا، ولا لتقيؤ الظل..

هاهي سيارة الوزير راسية هناك، وكذلك الشرطي الذي تحوّل إلى ضابط دون أن ألقى بالالذلك..

الضابط يزمجر بيديه ويشكل كلمات على غرار تشنج أصابعه والموقف الذي احتدم فجأة.

أبت نفسي أن يقال عنها خسيصة تتلظى وراء السائحات.. وبحركة عصبية لم أعدها في نفسي حتى في عسر الامتحانات، ثبت إلى رشدي واخترت أن أركب الصعب.. أو أواجه الداخلية مقابل ألا أتمسح بأذيال السائحات..

أنا نكرة في هذا المكان وفي كل مكان لكنني لا أحب أن يقال عني ما يقال.. لأول مرة أكتشف أنني أمشي وأمشي ولا أحد بإمكانه أن يثنيني عن العبور

ولا الداخلية نفسها.

الضابط يشق طريقه باتجاهي وعلى وجهه علامات قيام الساعة.. غيظه في حجم الوزارة وكواليسها ودواليبها وأكثر.. رأيت الشرر في عينيه لكنني لم أبال.. لا يمكن للضابط أن يعهد إلى قبضته أو كفه على مرأى ومسمع السائحات والسيول الأخرى العابرة من هنا وهناك..

كان إصبع السبابة الذي أمسك بالإبهام على ثلثه الأعلى وأنا أحت مشيتي، وحده الذي يشهد أن لدي كلمة أود أن أسربها إليه أو في أفطع الحالات أن أقولها علانية قبل أن يفعل ما يفعل.. ولعلها الحركة الوحيدة التي شغعت لي كل شيء أو على الأصح شغعت لي هذا التجاسر الأرعن..

قلت له بنغمة الشاب اللطيف ذي الظل الخفيف، وقبل أن تزيّن له نفسه إتيان حركة زجرية أو ما شابه: «النجدة النجدة أيها الضابط، التريليا تمرّ ولا قدرة لي والله على تحمل مثل هذا البذخ، بياضهن أقوى من نبضات قلبي المتواضعة. منذ وقعت عليهن عيناى، وأنفي لا يزال ينتفض من شدة العطس...»

قلت ذلك دفعة واحدة وكأنني أحفظ كلماتي عن ظهر قلب.. قلت ذلك دون أن أقدر على مداراة الضحكة الوحيدة التي كادت أن تبرد في وجهي إيذانا بموت الكلمة التي انقلبت فجأة إلى نكتة أو دعاية.. الكلمة التي غدا وجهي على إثرها ينظر إليّ وهو يندى عرقا.. لماذا لم تقلها لماذا؟!..

ابتسم الضابط، وبلمسة خفيفة مرر بيده على كتفي تحت أنظار السائحات وبعض الذين استرعى المشهد فضولهم، ومشينا معا مسافة قدرت دون أن التفت ناحية العسس أننا تجاوزنا باب الوزارة بدليل أن الضابط تركني هناك والابتسامة الشابه لا تفارق وجهه الصغير..

كانت شبه مظلمة تحجب عن عيني كل شيء وأنا في أوج الحدث، لكن ذهني بمعية الحاسة الخارقة كانا يتابعان بدقة كل شيء وكأنني على استعداد للرد على استفسارات المارة الذين تفضحهم عيونهم ولو من خلال حركة أو نامة أو شبه تعليق..

الكثيرون هنا (عند طرف المعبر) يبتسمون ابتسامات النصر وكأنني أول من جاوز مثلث برمودا..

اللافت للنظر أن غالبية أصحاب الشارع وأهله هم الذين مروا مرور الكرام وعلى وجوههم أغلفة وعلامات لا يقرأها أحد، وكان التكرار والعادة قتلا في نفوسهم الإحساس بالظواهر والأحداث..

القليل منهم هم الذين ساهموا بأضعف الإيمان، ابتسامة صغيرة أو إيماءة

راعشة أو نظرة إعجاب وجلة.. كانوا على قُلَّتْهم يرنون إليّ بنظرات جانبية متعطفة نظرات تروم الكلام لكنها تطرف بعبارات في الهواء..

الطريق سالك الآن، الضابط دحرثه دعابة أو نكتة وأهل البلد لا يلقون بالا لصغائر الأمور.. ماذا بقي إذن؟ هل أنا في وجه معبر آخر؟ ليس أقوى على واحد مثلي من معايير المناظرات وشرطة الوزارات.. أما البنات وخصوصا السائحات فالخجل لعبتي وبه يُستدل عليّ..

أية مفارقة هذه؟ سرب الطائرات بل سرب السائحات الطائرات هن اللاتي أبينُ إلا أن يستوضحن الحقيقة ويسجلن الحدث وكأن ذلك ضمن أجندتهن السياحية أو من طبيعة سلوكياتهن اليومية؟..

إنهن يُمكنسن بأصابعي وكل أطرافي ويحطن بي إحاطة النحل بالرحيق الموشك على الانتهاء.. صرت فجأة كما لو أنني لا أقدر على عدّهن وما الجدوى من عدّهن؟ الله أعلم بعددهن.. ذوات جمال وباع خضر العيون جريئات تكالبن عليّ دون تحذير مسبق.. يَرُطُنَ معا ويتلاغين معا.. سمة الألمانية حرف الخاء، لا تخفى عليّ.. ولما عيل صبري تلمظت إحداهن بفرنسية شبه طليقة وكأنها من مقاطعتي الألزاس واللوران:

«ماذا حدث لك من فضلك؟» سؤال مفحم، متجه رأسا إلى الصميم وبدون مقدمات!.. لم أدر ماذا أقدم وماذا أرجئ لكنني في النهاية قلت شيئا قد يحدث فعلا وفي أية لحظة: «الوزير يغامر، كان لابد من فسخ الطريق..» قالت إحداهن وبتنفس الرطانة: «لذلك أشاروا إلينا من بعيد نحن أيضا..» ثم قالت الأخرى ضاحكة: «أعجب الضابط بشجاعتك أم أنك زميل له؟»

قلت وقد بدأت كلمة الشجاعة تقصيني من دائرة الخجل وتعمل فيّ عملها: «أنا لا أشتغل في الوقت الراهن، لكنني أفكر بجدية في السفر إلى أوروبا..» اقتربت منّي إحداهن وهي الأقل طولاً والأكثر حدة في الصوت والصورة: «ما اسمك؟»

قلت وأنا أخفض رأسي حتى اقترب من قامتها: «رفيق» هكذا بخفة وبدون اسم العائلة لعلها تحفظه لكنني تمنيت لو أنني قلت لها «رفيقك» مع الترجمة اللازمة.. فجأة وبدون سابق إنذار، مسكتني برشاقة من يدي وكأنها تعلم أنني سأنقاد إليها بسهولة، ثم التفتت لبقية السرب قائلة بالحدة نفسها: «رفيق لي، سنلتقي فيما بعد..»

حدث هذا أمام الشرطة والضباط والوزارة وبالبساطة التي لا يتوقعها أحد.. في البداية كرهت انكشافهن إلى حدّ الغرغز ما أكرهني على ولوج مناطق

محظورة لا أحد تغيا ظلها قبلي أبدا. لكني فجأة ودونما تردد أحببت حديثهن وجراتهن وإحاطتهن بي؟؟..

سألت نفسي عن الخجل الذي انكشف زيفه وفظاظته، عن السحر الذي انقلب على الساحر.. وبدل الإجابة شعرت باستلاب غريب..

بالبساطة التي استولت بها علي، جالت بخاطري وبالبساطة نفسها ربما - مع فرق طفيف أو كبير- فكرة الحظ الذي قد يقهقه لي فجأة وتكون الفتاة غريبة الأطوار هذه ابنة إحدى مديري المارسيديس أو البي أم دابل يو أو الفولف أو الأوبال أو حتى الفولزفانن أو أحد كبار الصناعيين أو التجار أو المصرفيين..

وبدأت أشيد ما لا يمكن إيقافه سوى بخيال مضاد أو بكلمة مثل التي صوبتها نحوي : «ماذا تتمنى في حياتك ؟»

قالت ذلك وهي تمضي بي وكأنها تسحبني بخطاها الحاسمة تلك، إلى أعماق المدينة، إلى الشوارع الخلفية العاتمة..

لم أجد بدا ولا ضرورة للتفكير فنطقت بما جاش به خاطري قبل لساني :

«أن أشتغل، أن يكون لي عمل، العمل هو كل شيء في حياتي.»

ابتسمت فيما يشبه الاستسهال الممزوج بمسحة عبثية، وسارت أمامي بخطى سريعة لتدلف أخيرا إلى نزل رسمت عليه بأضواء النيون النهارية الراقصة ثلاث نجومات متوازية بالطول والعرض وبألوان مختلفة ومتداخلة الشيء الذي أغناني عن قراءة اسم المكان بسهولة..

جلست في صالون جانبي على مقربة من الجدار البلوري المعطل على الشارع الضيق، وأشارت لي بحفاوة الأنثى الحانية أن أجلس إلى جانبها وهي تضع فخذيهما القصيرتين المكتنزتين وكأنها ترسم حرف «لا» التي تعني نعم على عكس طريقة يتمنعن وهن الراغبات..

فعلت ذلك ثم صوبت لي عينيها الجريئتين بابتسامتها السهلة العبثية تلك، وهي تعيد علي نفس السؤال :

«ماذا تتمنى في حياتك ؟»

أجبت في نفسي وبسرعة قياسية :

«أن أعلق بواحدة مثلك بشرط أن أشتغل» لكني بنفس الصوت والحماسة التي أحببتها بها أوك مرة قلت :

«العمل هو كل شيء في حياتي.»

قالت بابتسامة مسترخية :

- ستكون حصاني إذن

— حصانك !

— أن تسابق خمس مرات في اليوم. ليس كثيرا.

— لكنني لم أركب حصانا بحياتي !

— هذا ما أريده أنا أبحث عن رجل مثلك . سأعلمك.

قالت ذلك وهي لا تزال تلقي عليّ بضوء تلك الابتسامة العبيثة السهلة ثم قفزت فجأة لتجذبني من يديّ جذبا لا يحيل إلا لأمر واحد وقالت بعيون مسترخية متعطفة وفم مائع يكاد يسيل :

— هيا بنا إذن لأول درس.

قلت كما لو أنني أضفي العسل على السكر :

«هيا لنا المركض أولاً»

قالت بفرح طفولي : «إنه جاهز» ثم دفعتني من خلف.. ولم تزل على حالها المستميت ذاك، تارة تجرني وطورا تدفعني إلى فوق..

ولما توسطنا الغرفة وتراءى لها أن السبق على وشك البدء، قالت وهي تخفض رأسها لأول مرة : «المعذرة. إني لا أدري كيف أبدأ ولا ماذا أقول. لقد جئت بك إلى هنا هكذا.. أبدو عازمة لكنني في الحقيقة مترددة.. أعرف بماذا تفكر وأنا أيضا.. هذا ما يفترض أن يحصل بين رجل وامرأة.. لكنني في الحقيقة لا أحب الرجال بل أكرههم وأمقتهم. ميولي للأسف أنثوية منذ الصغر..

بالمدرسة الثانوية يعبرنني صديقاتي بذلك، كلمة «لازيبان» صارت تؤلمني. العمر يمر وأنا لم ألتق الرجل المناسب..

صديقتي الأنثيم «جوزيفين» إنها الأطول قامة من اللاتي كن معنا منذ قليل، هي التي حرصتني على خوض أول تجربة.. منذ خروجنا من ألمانيا وهي تؤكد لي أن خمس سباقات — هي التي سميتها بهذا الاسم نسبة للأحصنة الجيدة التي تربى خصيصا لهذا الشأن.

تقول جوزفين إن خمس سباقات متتالية حسب تجارب كثيرة سابقة كفيلة بإعادتي إلى الوضع الطبيعي.. عندما رأيناك هناك بمواجهة الضابط أدركنا أنك الجواد المناسب. أكرر أسفي واعتذاري، جوزيفين هي التي تطلق هذا الاسم على بعض الرجال الذين لديهم عنتك وشجاعتك فضلا عن قامتك وقوة جسدك.

كان السؤال الذي لم تقو هذه القصيرة اللازيبان أو سككت عنه رغم جسارتها :

«ماذا تراك إذن فاعلا بي ؟»

سؤال وددت أن أطرحه بدوري، سؤال العاطل البطال الذي يستنجد بقشة أو

إعلان أو مناظرة أو شبهة عمل..

ولكي أشرع في الشبهة أو بالأحرى في العمل لابد من سؤالها عن اسمها كي أطرح من خلاله معادلة الأنثى والذكر من كل جوانبها والجانب النفسي على وجه الخصوص :

«اسمك أنجيلا واسمي رفيق، هل ترين الفارق؟.. أنا المدّ وأنت الجزر.. أنا الحرف القائم وأنت الحرف النائم.. وهكذا دواليك جلسة تلو جلسة ودرس إثر درس وركض وراء ركض.. أعدت أنجيلا إلى أنثاها..!

كيف الرجوع عن حياة بدت موسومة بالمناظرات والمحاولات وبوابات الوزارات فضلا عن السائحات؟ ثنائية دائمة التكرار؟ الحاجز تلو الحاجز؟ أعبر أولا أعبر؟!

يبدو أن أنجع وسيلة، تلك التي سلكتها تجاه الضابط.. أن أميت الكلمات وأحيلها فجأة إلى دعايات ونكات..

من خلال هذا الباب وحده يمكنني أن أمر.. أمر بوجه يندى عرقا ولا ينظر إليّ.

حسن مشري



محمد خريف

# زغيب الأطراف



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrnt.com>

مكتبة  
سحرنت



## انفعالات

### الجيلاني الحيواي

خلط الأوراق بسرعة ورشاقة ثم ضرب بها ضربتين سطح الطاولة التي تراكمت عليها أكواب الشاي والقهوة وزجاجات المشروبات الغازية. شعر بالراحة وهو يرسل نفثات الدخان عالية لمتمزج بالضجيج والسعال ودق حجرات الدومينو المتحدية

– لا حظ لكم اليوم ! استسلموا يا أوغاد !...

أجابه محفوظ باسماء : «يا طرايطر يا علوج !...».

كانت الجملة المحبذة إلى قلبه في تلك الأيام الغريبة الماضية. صورة ذلك الرجل الأسمر القصير الذي يفيض حيوية وتحديا، وتزرع كلماته أشياء تضطرب لها النفس

– إذا أردت بقية الكلام...!

– وهل للكلام بقية. <http://Archivebeta.Sakhr.it>

– نعم أكمل للعب...

– أكملوا إن أردتم أمّا أنا فلا ! يجب أن أعود... لقد تأخرت كثيرا !

ارتدى معطفه الأسود الثقيل وأزاح الكرسي الفارغ من جواره، أخرج بعض القطع النقدية، نظر إليها في لا مبالاة كاذبة ثم شق طريقه إلى الشارع الممتد بين الواجهات البلورية المضاءة؛ ولم يلبث أن انعطف إلى اليمين قليلا لتغيب خطاه في ظلمة دامسة بعد أن تبارى أبناء الحي على اقتناص الفوانيس البلدية بصوب من حجارتهم. كان عليه أن يسير قريبا من الرصيف ؛ لاعلى الرصيف الذي تكدست فوقه علب الفضلات من كل لون وصنف ورائحة. ولا على المعبد الذي يزداد خطره ليلا. فما أكثر الدراجات النارية التي تفتقر إلى الإنارة بل عليه أن يتبين الحفر والبالوعات الصغيرة ذات الأغطية الحديدية المتهرئة. تذكر الفوانيس التي أوصته زوجته باقتنائها فغرفة الأطفال ترزح هي أيضا في الظلمة بعد أن تعطل فانوسها. الساعة الآن متأخرة، وستلومه زوجته : أنت تنسى كل شيء إذا وجدت هؤلاء

الفارغين. تنسى نفسك وأطفالك!...» وتحملق فيه بعينين مستديرتين ككجتين من زجاج. لعنها ولعن أطفالها ولعن نفسه أي هم مقيم وأي أسى لايزول! لا بد أن أنسى شيئا ولا بد أن تجد علة لتذكرني بأنني مقصر وبأن أطفالني في حاجة إلي وبأنها هي أيضا بحاجة إلي. بعد أن ارتحلت إلى قاعة الاستقبال لأسهر وأطعم وأنام أمام التلفاز، اتهمتنني بشتى النعوت. إشاعة الفوضى والشماتة واللامبالاة بعنائها المتضاعف.

لكنني مرهق وأسوار البيوت بدت عالية متجهمة والطرقات ملتوية ضيقة وروائح الطعام قد غطت عليها روائح البالوعات، والنوافذ صماء لا تخلل خصاصها الأضواء وحدها القطط تؤثث هذه الأزقة وتعيث فيها وتسكن النوافذ بعد أن اختفت أصص الزهر وصارت الشبابيك بؤرا مظلمة تشع منها عيون غريبة تلمع في وحشة كابية. أخذت القطط هياث مختلفة بدت مقرفصة على هيئة البوم ترسل أصوات عراك عنيف -موسم التزاوج- لا موسم تزاوج لدى القطط هي تتوالد كالشوك! بدت له العيون مسامير من فولاذ لامع مصوب نحوه لكي يرديه. القطط السوداء أو ذات الألوان الداكنة تترصده وقد نطأ أحدها، أكبرها على الإطلاق. أخذ يتبعه. رآه يكبر ويتغير شكله بين الحين والحين: يطول ويتكور ويتوثب، لكنه لا يحول عنه ولا يزول.

ابتسم، هم أن يلتفتت: أن يلقيمه حجرا، لافائدة!.. ضحك من نفسه، أراد أن ينتهره، لم يخرج له صوت قال: «لافائدة!» وأمعن... لكن المواء أخذ يعلو من كل الجوانب. بدت له الشبابيك جحورا تسكنها عيون زجاجية. لو كانت تلك الكجج رصاصات كم يموت في حي مثل هذا؟.. كم جثة تتكدس تحت هذه النوافذ المغلقة؟ كيف تصير رائحتها عند الصباح؟ بعد يوم؟ بعد يومين؟.. شعر بالغثيان والإنهاك، رأى الأشلاء سيقان تبطر وأيد ورؤوس مخلوعة. قطع أخرى. بقع الدماء والقريح والتراب والديدان والرائحة والكوليرا وعويل النساء.. تتأقل جسده فجأة وأراد أن يجلس قليلا على عتبة أحد البيوت المحاذية، لم يستطع. كان المكان لزجا. لقد مسح سكان البيت ماعلق بأحذيتهم من وحل على الطرف الحاد منه.. لا بد من السير!

سمع صوتا يأتيه: لقد شخت اعترف يا جبان!

هم أن يبتسم من صوت محفوظ المشاغب لكن القط الأسود صار غليظ الذيل متوثبا وأزعجته عينه المتوثبة. بدا له متنمرا مهددا وصار مواؤه عريضة قاتلة... هم أن يلقيمه حجرا وضع يده على أول كومة صغيرة قرب السيارة الرابضة بالمكان. غاصت يده في أشياء لزجة واحتدت رائحة السمك، نفث يده، مسح يده الملوثة في

جريدة. توقف القط ثم نط إلى الكومة وراح ينبش فيها. تابع الرجل طريقه.. بدا الظل عموداً قائماً يزحف أمامه ويزيد الطريق وحشة. قال : متى أعبر هذا الزقاق ؟ الليلة موحشة وزوجتي قاسية وسريري بارد والأطفال لا يتعلمون بما فيه الكفاية وقد نسيت أشياء كثيرة.. ولا فرق الآن بين أن أعود أو ألا أعود. منذ أن هجرت التلفاز صار البيت جحيماً إضافياً. رائحة الطعام تغطي على كل شيء وتدفع إلى القيء. زوجته تحمل رائحة الطعام. نفس الستائر التي تتدلى منذ سنوات كحبال المشانق ثقيلة متربة وبغير لون، تختزن رائحة التوابل والزيوت المحترقة.. السريير : «برفق إننا نحدث ضجة ستفقي الأطفال... يفصلنا عنهم جدار بسيط !...» لا يسمعها، يتشنج وتنقبض معدته لحظة ثم يسترخي. انتهى كل شيء. يدير وجهه إلى الناحية الأخرى، لا يريد غير النوم، أن ينام فقط تلك هي أمنية من أنهك الموج في مغامرة ثقيلة.

— هكذا ! هذا كل ما عليك ؟ ينام ويعتصره الندم. يطمئن إلى أنها تغط في النوم. يقبل رأسها ويداهمه الدمع... الأطفال / الموت... أنا لا أفعل شيئاً... أنت دائماً هكذا انفعالي ومزاجي وتحب المقهى واقتناء الكتب دون أن تكلف نفسك مشقة قراءتها.

«كل شيء هناك في الصورة : الطفل والكرسي الخشبي والبقرة ترعى ولكن أين يذهب ؟ لا يذهب إلى أي مكان، الأمر بسيط : سيسير دون توقف أو هواده وكلما داهمه النوم أو أدركه التعب يقوم بمزيد من السير. تدمى قدماه، يفنيهما إسفلت الطرقات وغبار الثنايا. لا تتوقف... سر.. بدت قدماه متورمتين وعيناه طففتين.. أسبوع من السير والصوم.. تساقطت خطواته كحجر ثقيل. تعلق بالجدران المحاذية يتوكأ عليها داهمه الإغماء. رأى صوراً جميلة وقبيحة... في كل لحظة ينسج حلماً ويفتقه ليعود بخطاه إلى الطريق.

— أنا متعب يا صاحبي، استرح !

— لا أستطيع

— أنت مصاب بذهان ! ورهاب ! وفصام !

— كيف اقترفت هذه الجريمة في حق نفسك والآخرين ؟

وقف،

— اجلس. أتلقت أوراقك / تركت زوجتك... بدأت عملية انتحار وتسكع... أنت

قاتل. لاشك في ذلك !

صورة زوجته وابنيه.. الأثاث المبعثر..

أدلت كل مافي البيت من مؤونة.. سكبت الزيت.. أغلقت الباب والنوافذ

أوقدت ثم هربت متنكرا في ثوب متسكع سكير.  
وقف،

— اجلس!..

لعن والديه وخص أمه وأخته بأبشع النعوت ثم وصفه بكل صفات النذالة  
والعنانة والقوادة.. والتخنث وغسله بالبصاق وجفف دمه وعرقه بالوعد والوعيد  
والانتقام.  
وقف،

— اجلس!....

لم يجلس، سقط على الأرض، نطّ قطّ بين قدميه. انتبه. لم يدر ما يفعل في  
هذه الظلمة القاهرة. واصل خطواته. من غير المعقول أن تبقى هذه الفوانيس  
مكسرة إلى الأبد.

الجيلاني اليحياوي



### الامفارقة «فارمي» (1)

تأليف: ألان روستوف

تعريب: أحمد ممّو

#### 1 - المخرقة

كانت الشمس تغرب في سماء محمرة ضبابية؛ غسق أخذ عادي في نهاية حقبة الترياسي<sup>(2)</sup> على ذلك المشرف الصخري الذي تأوي إليه "الزواحف المجنحة"<sup>(3)</sup> (Pterophores) وحيث خطت التعرية تعرجات طويلة عمودية، فبدأ ذلك المشرف كالستار القرمزي لأحد المسارح، عند إطفاء الأضواء الأخيرة، والاستعداد لإصدار الدقات الثلاث.

لم تكن "الزواحف المجنحة" العائدة في طيران مهيب إلى أعشاشها المحفورة في الجدار الصخري، تتصور أن المسرحية التي ستقوم بعرضها هذا المساء، ستكون الأخيرة في وجودها. كيف يمكنها تصور ذلك؟ فهي وإن كانت ذات ذكاء يفوق بكثير ذكاء الحيوانات الأخرى التي تعيش على سطح الكرة الأرضية من الديناصورات المختلفة الأحجام والأشكال ذات الكتلة الدماغية التافهة، مقارنة ببغية حجمها، إلا أن التطور الفكري الذي بلغته لم يكن يعادل ذكاء الطيور البدائية.

نصف ساعة بعد غروب الشمس، تساقطت المراكب الفضائية في شكل مجموعات من الكرات الضوئية الخضراء والحمراء، وهي تتخلل السماء

(1) لمزيد التعرف على مفهوم "مفارقة فارمي"، انظر النص "ما هي مفارقة فارمي" الملحق بهذه القصة

(2) الترياسي هي الحقبة الجيولوجية الممتدة بين 251 و1996 مليون سنة بالنسبة للحاضر من تاريخ صر الكرة الأرضية

(3) "الزواحف المجنحة" (Pterophores) عائلة من زواحف الحقب الجيولوجي الثاني، ويبدو أن المؤلف قد اشتبه عليه "Pterosauridea" مع "Pterophoridae"، ذلك أن الاسم الأخير - وهو الذي استعمله المؤلف - ينطبق على عائلة كبيرة من الفراش تضم حوالي 600 صنف. أما "Pterosauridea" فهو اسم نوع الزواحف ذات الأجنحة (أو الزواحف الطائرة) القريبة في شكل أجنحتها من الخفافيش

كالشهب المحترقة الثابتة في مواقع سقوطها، فبعد أن تجمعت عند نقطة على مسافة ما من المشرف الصخري، حيث بقيت تلك المراكب الفضائية معلقة في الفضاء، على ارتفاع قرابة العشرين متراً، بغرض تنسيق خطة الهجوم، ها هي تتحول إلى رجم تقذف الواجهة الصخرية القائمة أمامها. لم تزعج تلك الجلبة الليلية بأي شكل من الأشكال، العديد من المتابعين لها. فالديناصورات، كما هو الشأن بالنسبة للزواحف المجنحة، معتادة على وجود هذه الآلات الطائرة التي كانت تراقبها باستمرار. ولم تكن تبدي حيالها أي رد فعل لا بالانجذاب إليها ولا بالرهبة من وجودها، فهي جزء من الطبيعة. وما هو المعنى الذي يكتسبه بالنسبة إليها، وجود هذه المراكب الفضائية التي كانت بدون ملاح؟ فهي وإن بدت مصنوعة من مواد أرضية إلا أن تصميمها قد تمّ من طرف كائنات تقيم على مسافة لا تقلّ بعداً عن ذلك المكان، بألف سنة ضوئية.

بعد تبادل حوار قصير صامت عن طريق الإشارات الضوئية، انقضت المراكب الفضائية على المشرف الصخري، لنقوم بنقش الجحور التي تأوي إليها "الزواحف المجنحة" الواحد بعد الآخر. حدث ذلك وفق إخراج مسرحي متقن لا يعكس أي قدر من القسوة الماحقة التي تمّ بها القضاء عن طريق تلك الأشعة القاتلة، على كلّ أفراد "الزواحف المجنحة". كانت المراكب الفضائية تندفع داخل الجحور، لفترات زمنية قصيرة لا تتجاوز أجزاء قليلة من الثانية، وبعد أن تحدد مواقع الحيوانات بها وبيوضها، تسلط عليها أشعتها القاتلة، ثم تمرّ خلال اللحظة المواتية إلى الجحر الموالي، تاركة وراءها، خليطاً من الغبار الملتهب. وكان البعض من تلك الزواحف المجنحة التي لم تكن قد أخذت للنوم بعد، تطلق صرخة قصيرة، قبل الموت، ما أن يضاء الجحر بالأشعة اللاهبة، وكان ذلك هو مظهر المقاومة الوحيد الذي تبديه تلك الكائنات.

كانت مراكب فضائية أخرى تقوم بنفس المهمة، على امتداد كل تلك المشارف الصخرية للمنطقة، وفي أقلّ من دقيقة، تمّ القضاء بصورة شاملة ونهائية، على صنف الزواحف المجنحة من فوق سطح الأرض.

## 2 - ماذا...لو...؟

لا يمكن لأي كائن بشري تهيأ له أن يشاهد تلك المجزرة، إلا أن تتملكه مشاعر الغضب والقرف. فالإنسان قد يقتل من أجل الغذاء أو بدافع لذة الصيد أو للتخلص من الحيوانات التي تضايقه، وأحياناً لمجرد أن يجعل من القتل مشهداً، ولكن هنالك دائماً دافع وراء القتل، مهما كان الحكم عليه نبيلاً أو سيئاً. ولكن

هذه المجزرة تبدو مجرد تصرف مجاني أخرج لا مبرر له، فماذا في وجود هذه الزواحف المجنحة يمكن أن تكون قد ضايق الآخرين؟ ومع ذلك فإن الإنسان العاقل - وهذا النعت كثير عليه - يمكنه أن يستنتج اليوم وبسرعة، أنه مدين بوجوده لهذه المجزرة، ذلك أن هدفها كان متمثلاً، بعد مائة مليون سنة من تلك الحادثة، في ظهور الإنسان على الأرض، ذلك أن الأرض قد عرفت قبل وجود الإنسان، شكلاً مختلفاً من الحياة العاقلة المتمثل في تلك الزواحف المجنحة.

لو لم يحدث هذا التدخل الهمجي، لبقى العالم تحت سيطرة كائنات لها رؤوس العصافير وأجساد أشبه ما تكون بالقوارض الكبرى المسماة "خنزير الماء"<sup>(4)</sup>، وهي كائنات كانت تتحرك على أربع بالقفز وتتواصل فيما بينها عن طريق الضغيب كما تفعل ذلك الفئران التي نعرفها. كانت قائمة تلك الكائنات أكبر من قائمة الكلاب، يكسوها جلد أملط أحمر اللون كالقزميد، يجعلها تبدو لنا أشبه ما تكون بالمسوخ العجيبة التي كانت تسكن خيال العالم القديم، أو بصورة أكثر شاعرية، كالهذيان لدى رسّام الصور المتحركة.

كانت تلك الكائنات قادرة على تصنيع عدة أدوات بواسطة أصابعها الثلاثة الكائنة في نهاية منقارها الطويل، كما كانت قادرة على نقش عدة تحف فنية، إضافة إلى قدرتها على تفصيل ما يلزمها من الأدوات. كما كان في إمكانها أيضاً ابتداء الحب والحرب والصفاقة واللعب والحياة الاجتماعية والسياسة والمسكة النقدية وأفضل ما هنالك، وأسوأ ما قد يتصور، مثل الإنسان تماماً.

في ذلك العالم الذي لم يوجد فيه الإنسان بعد، أمكن لنوع آخر من الكائنات "عديمة الأجنحة" أن يسيطر على سطح هذا الكوكب الذي هو الأرض. في تلك السنة التي وطئت فيها أقدامها سطح القمر، أي قبل أن يتوصل الإنسان إلى ذلك بعد 102495623 سنة و249 يوماً، كان عدد الكائنات "عديمة الأجنحة" يقلّ عن المليار بقليل، وقد توصلت الغالبية العظمى منها إلى التمرکز في المناطق المعتدلة حيث تتم زراعة الحبوب التي تفتت منها.

تبدو الأرض للوهلة الأولى، عندما ينظر إليها من إحدى زوايا الكون، مسكونة بكائنات عاقلة، فالأراضي اليابسة يتخللها حزامان أفقيان يمتدان ما بين المدارين والقطبين يحذاهما من ناحية، أشجار "التيفا" ومن الناحية الأخرى الصحراء القاحلة أو الغابة الاستوائية. ويمكن تبين ذلك بالنظر إلى صور الأقمار الصناعية لمنطقة وسط غربي أمريكا الشمالية أو لمنطقة حقول القمح

(4) خنزير الماء (cabaye) صنف من القوارض الكبرى التي تعيش بأمريكا الجنوبية

بأوكرانيا. وتشكل الزراعة المكثفة الوحيدة بهذه المناطق، أحد المؤشرات الأكثر وضوحاً عن وجود هذه الحضارة بالنسبة لمراقب بعيد في مكان ما من الكون، وهي تبدو أكثر وضوحاً من المدن والطرق، وينطبق ذلك بشكل خاص، على الكائنات "عديمة الأجنحة" التي كانت تقيم في جحور خرسانية وقلماً تنتقل. كان الاتصال بينها، يتم أساساً تحت الأرض، عن طريق شبكة من الأنفاق القديمة تتخللها طرقاً متوارثة تصل بين مكامن الأجداد. لم تكن الكائنات "عديمة الأجنحة" في حاجة للطاقة للإضاءة، فهي مزودة بأعين قائمة في الجبهة وبحدقات مستطيلة تمكنها من الرؤية في الظلام، لذلك لم تكن تستهلك في استعمالات حياتها الأخرى، إلا القليل من الطاقة. وسرعان ما أمكنها أن تبرع في استعمال الدواب لنقل السلع والمحاصيل، وكان ذلك سبباً - رغم أنه لا يبدو كذلك - في الحدّ من تطورها، إذ أن المدة الفاصلة بين أول أثر للمجتمع المنظم لديها وبداية التصنيع، لا تقل عن خمسة ملايين سنة.

كانت أول الكائنات "عديمة الأجنحة" التي يمكن اعتبارها متطورة، خلافاً لما حصل لدى الإنسان الذي اضطر إلى استخدام عقله في التفكير بصورة متواصلة، للصراع من أجل البقاء في بيئة معادية، وبالتالي إلى تطوير ملكاته، تعيش في رفاه نسبي. فهي محمية من أعدائها عن طريق حيوانات أهلية مدربة على حمايتها، ولم تتوصل إلى أن تعيش على ما يوفره لها الصيد نظراً لأنه لم يكن دائماً مضموناً، مما جعل تطورها بطيئاً.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويبدو أن أهم ما أنجزته تلك الكائنات "عديمة الأجنحة"، إلى حدّ نهاية حضارتها، كان تمثلاً في الزراعة، فهي قد استثمرت كل قيراط من الأراضي المزروعة باعتماد التداول الزراعي والريّ مع ضمان درجة عالية من المردود واعتماد نظام خاص لتوزيع الثروة يضمن العدالة والمساواة. وقد ورثت ذلك عن جدس طبيعي بالتضامن ممّا جعلها في مأمن من المجاعات، وذلك ما يفسر غياب مفردة "الجوع" من مختلف اللغات التي تستعملها.

ورغم أن الكائنات "عديمة الأجنحة" كانت ذات طبيعة مسالمة، وذلك ما سهّل لها الحياة في وفاق كلما تهيأت لها الظروف المناخية الملائمة لضمان مقومات وجودها، إلا أنها تعرضت خلال مختلف مراحل تاريخها، إلى أزمات متعددة. فقد حدث منذ إحدى وعشرين ألف سنة، عندما وصلت هذه الكائنات إلى القمر، أن سيطرت على كوكب الأرض فترة جليدية قضت على كل الزراعات القريبة جداً من القطبين، فاندلعت النزاعات بين الأثرياء والفقراء وسرعان ما تحولت تلك النزاعات تدريجاً إلى حرب شاملة سعى أحد طرفيها، من ناحية،



إلى حماية المزروعات من النهب، بتجنيد الجيوش والشرطة، في حين سعى الطرف المقابل، من ناحية أخرى، إلى اختراع السلاح ومقاومة الشرطة والجيوش، لضمان بقاءه. ولم تكن تلك الأسلحة قد بلغت من التطور ما أمكن أن يتوصل إليه الإنسان في هذا المجال، فقد كانت مجرد أدوات حادة تستعملها تلك الكائنات المسالمة بصعوبة عن طريق زواندها المنقرية الثلاثة، وقد حولتها المجاعات والحقد فجأة، إلى كائنات دموية. وبلغت التقنيات الحربية لديها قمة تطورها مع أصناف من القاذفات ترمي الأعداء بشفرات قاطعة. وتوقف الأمر عند ذلك الحد. ولم تتجاوز حصيلة تلك الحروب البدائية أرقاما متواضعة من القتلى والجرحى، ولكن المجزرة التي تعرضت لها بعد ذلك، في نهاية وجودها، كانت الأشد هولا وفظاعة. لم تكن هنالك ساحة وغى مغطاة بالجثث ولا خنادق ولا تجعيرات قاتلة متواصلة، كذلك التي تميز الحروب البشرية، وكانت مجرد رؤية الدماء بالنسبة لهذه الكائنات المسالمة، صدمة نفسية لا تقاوم.

انتهت الحرب عندما قررت القبائل المقيمة قريبا من القطبين، التجمع تحت قيادة متميزة، لتحسين تنظيمها من أجل الهجوم، بعد أن أثخن فيها التغيرات المناخية وأوقعت بها المجاعات. وقد مكنتها تحالفها السياسي، على وجه الخصوص، من الدخول في مفاوضات مع أعدائها. وما أن شرع في تلك المفاوضات، حتى أمكن التوصل إلى اتفاق على الهدنة ثم التوصل إلى السلام. وقام الأثرياء باقتسام المجاصيل مع الآخرين وبذلك عرفوا هم أيضا الخصاصة، فمات البعض منهم جوعا، ولكن ذلك لم يكن أشد عليهم من الحرب. وفي فترة نقل من قرن، أمكن التوصل إلى تحسين الأنظمة الزراعية وتعميم الاكتفاء الذاتي، وبذلك عرفت الكائنات "غير المجنحة"، السلام.

أصبح كوكب الأرض مقسما بين عدة مجموعات وطنية متفاوتة الأهمية، أكثرها نفوذا تجمع قبائل الشمال الذي يشمل خمس الأراضي المأهولة، وبه يقم ربع سكان الكوكب. وكانت هذه الدولة القوية تتعاون بشكل سلمي ومتسامح مع الدول الأخرى. وقد تم تحت حكمها، خلال أربعة قرون إنجاز المستحدثات العلمية والتقنية التي مكنت، من بين منجزاتها، من السفرات الفضائية ونقل الصور باستعمال أمواج الراديو وتغطية الكوكب بالسوائل والسيطرة على الفضاء الكوني. قد يبدو مثل هذا المجتمع غريبا في نظرنا لتداخل جوانب مستقبلية فيه مع أخرى ألصق بقرون التخلف. فإذا كانت الكائنات "عديمة الأجنحة" قد توصلت إلى التحكم الكامل في الزراعة وتنظيم النقل والمواصلات والطب، وأصبح بإمكانها تغيير المناخ بحسب رغبتها، فإنها على النقيض من

ذلك، كانت لا تزال تتنقل في أغلب الحالات، مشيا على الأقدام أو باستعمال الدواب والمناطيد الهوائية التي يتم توجيهها، وقلما تستعمل الطائرة، وهي في الواقع لا تملك من الطائرات إلا حوالي المائة، وأغلبها ذات دفع مروحي لا يمكنها من بلوغ سرعة 500 كم/الساعة، ولا يتم استعمال هذه الطائرات إلا في الزيارات الرسمية لرؤساء الدول.

أما المعمار فيبدو على درجة كبيرة من التواضع عند هذه الشعوب، فلا وجود لتلك المدن الكبرى التي تسيطر عليها ناطحات السحاب، بل تقتصر التجمعات السكنية على ركام من الطين والاسمنت يقوم فوق أنفاق تخزين المدخرات التموينية، حيث يتم أيضا إقامة الاحتفالات الدينية والاجتماعية. ولم يكن للحرب التي كانت أحد أهم دوافع التطور البشري، نفس الحضور والتواصل في تاريخ هذه الكائنات "عديمة الأجنحة". فهي وإن كانت قد عرفت المتفجرات وبصدد التوصل إلى اكتشاف الطاقة النووية، إلا أن فكرة استعمال هذه الطاقات لأغراض الهدم لم تكن لتخطر لها على بال.

اعتنقت الكائنات "عديمة الأجنحة" دينًا توحيديا على درجة كبيرة من بساطة المبادئ والتسامح، يقوم على تقديس الخلق والطبيعة أكثر مما هو ممارسة لمعتقد متصل بالخير والشر. ورغم أن الطقوس المعتمدة تختلف من ثقافة إلى أخرى، إلا أنه كان من غير المعقول في نظر تلك الشعوب، الدخول في صراع لفرض معتقد ما.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وإذا اعتبرنا منظورنا الأخلاقي فلا بد من الإقرار بأن الكائنات التي وفرت للإنسان المهد الذي نما فيه، قد اقتصرت تصرفا مشينا بعدم سماحها لهذه المخلوقات "عديمة الأجنحة" بالتطور رغم أنها أقل نزوعا إلى الصراع من الإنسان.

كانت "الزواحف المجنحة" (Pterophores) التي يعتقد أنها أصل الكائنات "عديمة الأجنحة"، خلال الفترة التي سيطرت فيها على الأرض، أكثر الحيوانات تطورا، وهي أقرب ما تكون إلى الكائنات "جناحية الأطراف" (Ptérodactyles)، ولكن دماغها كان أكبر حجما بكثير. وقد أمكنها أن تطور نظاما اجتماعيا أوصلها إلى الذكاء العاقل. فلو أن الكائنات التي تسببت في انقراضها، قد اكتفت بمجرد القضاء عليها ولم تقم بمسح كل الشواهد المتحجرة الدالة على وجودها، لكانت تلك البقايا من المستحاثات شاهدا على فترة وجودها القصيرة. وقد كان بإمكانها أن تتبوأ مكانة متميزة بين الكائنات التي حفظها سجل

الحيوانات المنقرضة، نظرا لخصوصية نظامها الفيزيولوجي ونمط حياتها الجماعي. فقد كان بإمكانها أن تصبح محل عناية العلماء ويتم تخصيص فرع لها في دراسة المستحاثات. كما أن تلك المشاهد الخاصة بالماضي السحيق التي تضعها المتاحف لتمثيل مراحل تطور الحياة على سطح الأرض والتي تسحر الأطفال دائما، كانت ستقدمها وهي تحوم بأجنحتها العريضة فوق زواحف "الديبلودوكيس" (Diplodocus) و"التيرانوزوريس" (Tyrannosaurus)، في شكل بطاريق ضخمة ذات منقار طويل معقوف.

كانت الخطة المحكمة التي وضعت للقضاء على الزواحف المجنحة تشمل أيضا القضاء على كل معرفة متعلقة بها لدى الصنف الحيواني الذي سيأخذ مكانها. فزيادة عن القضاء على كل الأفراد الموجودين في ذلك الحين، تم القضاء أيضا على كل المستحاثات وعلى كل القرائن الشاهدة على أسبقية وجود ذلك الصنف من الكائنات. وإن أي كائن بشري لا يمكن أن يشك يوما في أن هذه الكائنات قد سبق لها أن وجدت، ذلك أن دراسة بقاياها المتحجرة من طرف علماء المستحاثات، عندما تبلغ علوم الحياة درجة تسمح لهم بإعادة تشكيل مسار تطور الحياة بكثير من الدقة، وكذلك تفسير بعض الإشكالات الغامضة كتلك التي يطرحها اختفاء الديناصورات مثلا، كان بإمكانها أن تبين وجود تدخل خارجي. وكان حتما على الإنسان الاعتقاد بأن وجوده على الأرض لم يكن إلا نتيجة سلسلة من الأحداث غير الهادفة أو في الحالة القصوى، نتيجة الرغبة الإلهية. ولم يكن مسموحا له بتصوير السيناريو البديل الذي تضافرت على توفيره الصدفة والطبيعة.

كانت "الزواحف المجنحة" المسيطرة بأجنحتها العريضة المهيبة على فضاء المشاهد الخلابة لحقبة نهاية الترياسي، يعيش داخل مجال محدود تنمو فيه تلك النباتات التي تقنيات منها والتي تسيطر على جزء مما أصبح يعرف اليوم تحت اسم "كاليفورنيا" و "أريزونا". فتلك الحيوانات كان يكسوها زغب جنيني متدرج اللون من البني الغامق إلى الأحمر القاني. وكانت تشبه طيورا كبيرة هادئة دائمة السعي وراء الحبوب والثمار لها ولصغارها. وقد أمكنها أن تنتشر خلال حقبة الجوراسي (٥) على كامل سطح الكرة الأرضية وأن تنوع نظامها الغذائي. وعندما تم لقراض الديناصورات، وجدت نفسها في منافسة مباشرة مع كائنات "الزباب" (٦) (musaraignes) التي كانت أولى الثدييات وأخرها أيضا؟.. فهذه الفئران الصغيرة قد انقرضت في أقل من مليون سنة بعد أن

(٥) امتدت حقبة الجوراسي من 205 مليون سنة إلى 137 مليون سنة قبل الآن. وهي فترة تسمت بانتشار الديناصورات وخاصة العاشبة منها.

(٦) للزباب (musaraignes) صنف من القوارض

سيطرت كائنات أكثر تأقلماً مع البيئة، على أقواتها. وبذلك كانت أحد الفروع الضامرة من شجرة الحياة، كما سبق أن حدث ذلك من قبل، لكائنات عديدة أخرى، في حين أمكن لفروع أخرى أن تواصل نموها واشتدادها. وبذلك أصبحت "الزواحف المجنحة" سيّدة العالم.. كما ظهرت عدة أصناف أخرى من الحيوانات، سيطرت على الأرض والمحيطات، وكان من بينها صنف يحمل في جيناته، بوادر التطور نحو الذكاء. وقد ظهر ذلك الصنف بإحدى تلك الجزر الكبيرة الخالية من الأعداء المفترسين، وتخلّى أفراد ذلك الصنف عن الاحتماء بالأشجار والجحور التي كانوا يأوون إليها وأصبحوا يعيشون على الأرض. وتدرجياً تحولت الأجنحة إلى قوائم تمكنهم من التنقل، وظهرت في نهاية المناقير الطويلة لتلك الكائنات، زائدة طرفية غضة كان لها دور كبير في نبش الأرض لالتقاط الحبوب، ثم أصبحت تلك الزائدة، بعد آلاف السنين، عضواً شبيهاً بخرطوم الغيل يستعمل للقبض على الأشياء.

وقد تسببت حركة صفائح القشرة الأرضية في اقتراب تلك الجزيرة من القارة، وبذلك أصبحت تلك الكائنات غير محمية بالمحيط الذي كان يعزلها عن أعدائها من الكائنات الطائرة الأخرى، فاضطرت لحفر الجحور في الأرض للاختباء وطورت نظاماً للاتصال وللإنذار بوقوع الغارات التي تستهدفها، كما تفعل ذلك اليوم، الكلاب المتوحشة لتوقي هجمات "البوارد" (7) (Buzzards) و"القيوط" (8) (Coyotes).

لم تكن تلك الكائنات أكثر ذكاء من هذه القوارض الأمريكية التي نعرفها اليوم، ولكن بعد بضعة ملايين من السنين، أصبح نظام اتصالها أفضل، في شكل لغة متكاملة، وفي نفس الوقت انقسمت تلك الزائدة الخرطومية إلى ثلاثة أجزاء شبيهة بملابس الأخطبوط وأصبحت بمثابة يد الإنسان، فكانت تلك هي أداة الذكاء الاصطناعي الأولى لديها.

قد يبدو غريباً أن تتمكن تلك الكائنات بواسطة طرف بسيط مثل تلك الزائدة، من المهارة الكافية لصنع الصواريخ العابرة للكواكب، ولكن هذه الكائنات كانت تتصرف كالطيور وليس كالإنسان. فإذا ما أمكن التخلص من نظرنا إليها المتأثرة باقتصار الذكاء على الكائن البشري، فإن تلك الأعشاش التي تقيمها طيور النساج بإفريقيا الجنوبية، ستبدو لنا تحفاً معمارية، يتم بناؤها

(7) البوارد (Buzzards) صنف من الجوارح التي تعيش بالقارة الأمريكية

(8) القيوط (Coyotes): ذئب أمريكي صغير

بمجرد استعمال منقار بسيط وقليل من العيدان الهشة، وهكذا يمكن تصور ما باستطاعة كائنات مماثلة التوصل إليه بعد عدة ملايين السنين من التطور.

### III - لماذا؟

تلك الكائنات العاقلة من خارج الأرض التي تدخلت فجأة في مسار الحياة على الأرض، كانت تتصرف وفق أسباب خاصة تتجاوز فهمنا. فهي وإن فضلت الجنس البشري على الزواحف المجنحة، فإن ذلك لم يكن تمييزاً له، إذ لم يكن يهمها كثيراً أن يكون المتحكم في هذا الكوكب، من ذوي القامة المنتصبية أو من الطيور ذوات الأربع، وهي وإن اختارت الصنف الأول فلمجرد أن الوقت اللازم لهذا الجنس أو الآخر لبلوغ الحضارة أقصر. ولقد كانت الظروف ملائمة على سطح الأرض لظهور مجتمع من الكائنات ذات الحمض النووي من الرتبة 5 كما هو الشأن بالنسبة للبشر، في حين أن الكائنات المجنحة، كانت ذات حمض نووي من الرتبة 2. وكان في إمكانها بلوغ نفس الرتبة من الذكاء، ولكن بعد 100 مليون سنة أخرى. وكان هذا الفارق في الزمن اللازم لأحدهما للوصول إلى السيطرة على الأرض هو الذي أعطى الأفضلية للإنسان، حتى وإن تم ذلك بواسطة كائنات ذات نظام بيولوجي مختلف تماماً، تخضع شفرته الجينية لتفاعلات كهربائية قائمة بين سلاسل طويلة من الهباءات التي يلعب فيها الحديد الدور الأساسي.

لماذا سارعت هذه الكائنات الخارجية بإبراز حياة عاقلة؟ لمجرد أنها كانت خاضعة لنبض يعرفه كل شكل من أشكال الحياة عند بلوغ هذا المستوى التكنولوجي، وهو ما لن يفهمه الإنسان إلا عند بلوغه نفس المرحلة من التطور، أي الرغبة في إيجاد حضارة ما.

### IV - كيف؟

لم تكن تلك المحركات المتحركة بين الديناميكيات في نهاية حقبة الترياسي، مركبات فضائية بإمكانها القيام بسفرة تمتد ألف سنة بسرعة قريبة من سرعة الضوء<sup>(9)</sup>، تنفيذاً لمهمة محددة. ونحن اليوم نتصور أن السيطرة على الفضاء الكوني يتطلب مركبات مأهولة ببنى البشر أو بالروبوتات. هذا هو تصور حضارة لم يتجاوز عمرها بضعة آلاف من السنين. ولكن استكشاف عوالم بعيدة والتأثير على مصيرها، لا يتطلب تصدير المادة إليها، بل إن ذلك لا يتطلب إلا توفير العنصرين المميزين للحضارة المتقدمة : الطاقة والذكاء.

(9) تقدر سرعة الضوء بحوالي 300 000 كم/الثانية.

فمنذ 250 مليون سنة، وعلى مسافة 1000 سنة ضوئية من الأرض، قامت كائنات حية بتوجيه شحنة من الجزيئات التي لم نتوصل بعد إلى فهم طبيعتها، إلى ركن ما من الكون تبينت فيه الظروف الملائمة للحياة. وبعد رحلة دامت عشرة قرون لتلك الجزيئات، ظهرت الحياة العاقلة للمرة الأولى على كوكبنا، وذلك بظهور التصنيع. تم تصنيع محركات على درجة كبيرة من التعقيد وظفت لاستكشاف الموقع ودراسة كائناته، ووضع مخطط يساعد على تسريع إنجاز ما كانت الطبيعة قد قامت ببرمجته. تم الاتصال بين الأرض وكوكب ما بعيد، لكنه واقع في نطاق نفس المجرة، ولكن هذا الاتصال كان أحادي الاتجاه. كانت تلك المحركات تقوم بإرسال تقارير متتالية لأولئك الذين صنعوها. وكان وصول تلك التقارير إلى أصحابها، يتطلب ألف سنة دون أن يصدر عنهم أي رد فعل، أو على الأقل السماح لتلك المحركات بمواصلة مهمتها. لقد كانت الخطة محكمة بشكل لا يستوجب أي تعديل.

لماذا لا يمكن اليوم، العثور على أي أثر لهذه الثقافة التي كانت معهودة بشكل واسع لدى أجدادنا الأول؟ ولماذا اختفت هذه المحركات الرائعة التي قضت على "الزواحف المجنحة" (Pterophores) والتي عايشت من خلال تطورها، ظهور الحيوانات منذ بدء الخليقة إلى ظهور إنسان "كرومانيون" (Cromanian)<sup>(10)</sup>. وفي الواقع، هل اختفت تماما عن مجال إدراك الإنسان؟...

## V - مفارقة

منذ وعى الإنسان أن الأجرام السماوية التي تضيء ليلاليه ليست تقوبا في ملاء كبيرة سوداء أو شمعدانات أضاعتها الآلهة، وهو يتساءل عن وجود كائنات مشابهة له في تلك العوالم. وعندما كان التفكير العلمي غائبا لكي يحد من جموح خيال الأدباء، فإن الإجابة عن ذلك التساؤل كانت إما تصور كائنات على شكل الإنسان كما هو الشأن بالنسبة لـ "ميكروميغا" (<sup>(11)</sup> Micromégas) أو "اللياليبيون" (<sup>(12)</sup> Lilliputiens)، إما كائنات خرافية غالبا ما تجمع بين خصائص الإنسان والحيوان في شكلها، وهي دائما كائنات شبه مرعبة. وعندما أصبحت هذه الكائنات مجرد تمثيل للفلسفة أو للتخوف من المستقبل، وعندما استولى هذا التساؤل على اهتمام العلماء، ووقع الجمع بين مفردتين متناقضتين لتشكلا "الخيال العلمي"، وبذلك أصبحت دراسة هذا الإشكال أكثر جدية،

(<sup>(10)</sup> إنسان "كرومانيون" (Cromanian): مرحلة في تطور الإنسان العاقل وقد عرفت بقاءه في أوروبا.

(<sup>(11)</sup> ميكروميغا (Micromégas): قصة فلسفية شهيرة لولتير نشرت سنة 1752 وتعتبر من بدايات الخيال العلمي.

(<sup>(12)</sup> اللياليبيون (Lilliputiens): سكان بلاد الليبيوت، وهي كائنات خيالية ورد ذكرها في رواية "المغامر جيلفر" (1745-1667) لجونثان سويت.

ظهرت عشرات النظريات حول الكائنات التي قد تكون رافقت وجود الإنسان خلال العهود الغابرة. كانت متنوعة تلك الدراسات، إذ أنها تدخل في مجال الدراسات التي لا يمكن فيها اعتماد إلا عينة واحدة ثابتة: الحياة على كوكبنا، لذلك فإنه لا يمكن إقامة أي تفكير منطقي إلا اعتمادا على الفرضيات والاستنتاجات.

كانت أشهر مساهمة علمية في بحث إشكالية وجود حضارات خارج كوكب الأرض، قد جاءت في شكل "صيغة درايك" (Formule de Drake)<sup>(13)</sup>. وهي لا تتوصل بالمفاهيم الرياضية المعقدة لشرح مضمونها، بل يمكن إجمالها تقريبا في جداء عوامل أولها نسبة التكون السنوي للكواكب المماثلة لشمسنا. يمكننا العلم الحديث اليوم، من تكوين فكرة عن ذلك نظرا لأننا نعرف عدد كواكب المجرة، وأصبحنا نفهم بشكل أفضل، التفاعلات التي تقود إلى تكونها بالمفاهيم التالية التي تمثل نسب منظومات الكواكب والكواكب المؤهلة لاحتضان الحياة من بينها وعدد أصناف الحياة التي ظهرت على هذه الكواكب، إلخ... تقضي في النهاية، إلى عدد الحضارات التقنية التي ظهرت على درب الثبات. والقيم التي يقدراها لها العلماء على درجة كبيرة من الاختلاف، وهي أكثر ارتباطا بقناعاتهم الشخصية منها بالاعتبارات الموضوعية. أما العامل النهائي في هذه المعادلة فيتمثل في معدل عمر هذه الحضارات، ومما لا شك فيه أنه الأكثر صعوبة للضبط، ومجرد ذكره باعث على القلق لأنه يضعنا في مواجهة فكرة افتراضنا المتوقع.

الفكرة الأكثر شيوعا لدى العلماء هي أن الحياة ظاهرة عادية. وهم مدفوعون إلى ذلك التفكير بسببين أولهما على درجة كبيرة من المنطق وهو أن الحياة، من خلال النموذج الوحيد الذي نعرفه، ظهرت بسرعة كبيرة، بعد بضعة مئات ملايين السنين من تكون كوكب الأرض. فما أن أصبحت الأرض قابلة للتأهيل حتى ظهرت أصناف البكتيريا الأولى. فإذا ما كانت الحياة نتيجة عوامل متعددة ضعيفة الاحتمال، فلماذا كان النجاح حليفها منذ المحاولة الأولى؟ هل استفادت من ظروف مواتية غير عادية؟ أما السبب الثاني الذي يجعلنا نعتقد أننا مجرد مثال عادي لظاهرة واسعة الانتشار، فيتمثل في التتكيل الذي تعرض له خلال التاريخ كل العلماء القائلين بنظريات أن الإنسان والأرض ليسا مركز الكون. وهي نظريات اتضح دائما أنها صحيحة، ووجدت ظلامية الكنيسة نفسها أمامها، في موقف الانخزال. فالعلم في القرن 21 قد أخذ بثأر "كوبرنيكس"

(13) في خصوص صيغة درايك، انظر النص الملحق بهذه القصة بعنوان "معادلة درايك".

(Copernic, 1473-1543) و"غاليلي" (<sup>14</sup>Galilée)، لكن تلك المعارك تركت آثارها التي مازالت ماثلة في أذهان العلماء.

هذا ما يفسر أن الحدمس والتفكير السليم يدفعنا إلى الاعتقاد بأننا "لم نكن أبدا وحدنا...". ولكن إذا ما اعتبرنا هذه الفرضية، أساس تفكيرنا، فسنصطدم بالمفارقة التالية التي توصل إليها العالم الفيزيائي "فارمي": "إذا ما كان صحيحا أنه يوجد على الأقل مجتمع واحد بالمجرة له نفس درجة التطور التي نتصف بها حضارتنا، فإنه من غير المحتمل جدا أن تكون تلك هي الحضارة الوحيدة أو أنه لم توجد إلا عشر حضارات مماثلة على الأكثر." فلا يعقل أن تكون الحياة محدودة بهذا الشكل حول ما يزيد عن 400 مليار من الشمس، بل الأقرب إلى المنطق أنها وفيرة فائضة. وحتى في صورة ما إذا كانت الحياة ظاهرة محدودة جدا، فإنه من شبه المستحيل أن تظهر للمرة الأولى، على سطح الأرض. فقد توفرت لها عديد الفرص الأفضل، منذ حدوث "الانفجار العظيم" (<sup>15</sup>Big Bang)، لكي تظهر على كوكب آخر. والأکید أن ذلك كان قابلا للحدث قبل أكثر من مليون سنة، وهي فترة زمنية قصيرة جدا، مقارنة بعمر الكون.

الخلاصة أنه إذا ما كان الإنسان لم يتلق الحياة من إصبع الخالق، كما تجسم ذلك لوحة "ميكائيل أنج" (Michel Ange) المرسومة على سقف كنيسة "سيكستين" (Sixtine)، فهو لا بد أن يكون قد ولد في مجرة مأهولة بعديد الكائنات العاقلة التي سبقته إلى الوجود بعدة ملايين السنين. ونتيجة لذلك فإن الاختراعات الحديثة التي توصل إليها الإنسان مثل الطاقة النووية والتلفزة، ستبدو لتلك الكائنات أقرب إلى البدائية من التحكم في النار بالنسبة للإنسان. فهذه الكائنات قد أنجزت كل ما توصلنا إليه وكل ما نعتقد أنه ممكن، وعلى الأخص، العديد من تلك الأشياء التي لسنا قادرين بعد على تصورها. فالسفر إلى الكواكب الأخرى، وهو الحلم الذي راودنا حديثا، لا بد أن يكون بالنسبة إليها شيئا عاديا. فهذه الكائنات قد فرضت سيطرتها على منظومة الكواكب التي تتحكم فيها، وهو ما شرعنا فيه، وكذلك الكواكب القريبة، وأيضا كل العوالم التي في متناولها، أي المجرة بأكملها. وحتى وإن كانت تلك الكائنات لم تتحول ماديا إلى تلك العوالم، فهي قد أمطرت الكون بعديد الإرساليات المحمولة عن طريق أمواج الراديو أو وهو ما يبدو أكثر احتمالا، بتقنية أخرى أكثر جدوى لم نتوصل إليها بعد.

(<sup>14</sup>) كان غاليلي (G. Galilée) أول من تحدى الكنيسة وجاهر بأن الأرض تدور حول الشمس، فادانته.

(<sup>15</sup>) "الانفجار العظيم" (Big Bang) وهو الذي يعتبر علما أصل وجود الكون، وقد حدث ذلك منذ 13,7 مليار سنة. وهذه التسمية من اختراع العالم الفيزيائي الأنكليزي "فريد هويل" (Fred Hoyle) سنة 1950.



لماذا لم يحدث أن التقينا بتلك الكائنات؟... هذا هو السؤال الذي تضعه مفارقة "فارمي" وهو سؤال يمكن الإجابة عنه بالشكل التالي: "الفرضيات الأولية كانت خاطئة أو أن المنطق المعتمد غير سليم ويشتمل على ثغرات"، وفي هذه الحالة يتحتم ضبط نقاط الضعف في المنطق المعتمد.

## VI - الفرضيات

تم تقديم عديد الحلول لتفسير "مفارقة فارمي"، ولكن أيا منها لم تكن مقاربة للحقيقة بما يضمن الاطمئنان إليها. فإذا ما استثنينا النظرية القائلة بأننا الكائنات الحية الوحيدة في الكون، وهي وإن لم تكن مغرية جدا، إلا أنها تبدو الأقرب إلى الحقيقة لتفسير تلك المفارقة. ولكن هناك أيضا العديد من النظريات الأخرى، وهي على درجات متفاوتة من المنطق، ولكنها كلها خاطئة. فالبعض منها مدروسة بدقة وتقوم على نماذج رياضية معقدة لكي يتم شرحها لأي إنسان عادي. ولكن نظرا لأنها كلها خاطئة، فلا جدوى من دراستها هنا، إذ أن الحقيقة أبسط من ذلك بكثير.

البعض من تلك الحلول الأخرى، قائم على فرضية مغايرة، هي التالية: تشتمل جينات إنسان القرن 21 على الرغبة في الاستكشاف والاتصال بالآخر. فلماذا نتصور أن ذلك ينسحب على كائنات الكواكب الأخرى؟ لماذا لا تكون تلك الكائنات قابعة بالبقاء ضمن بيئتها على الكواكب الأخرى، دون أي اهتمام بأشكال الحياة الأخرى؟ ماذا لو كان ذلك صحيحا؟... ذلك يعني أننا نحن البشر، نمثل الاستثناء بما لدينا من عقل متطلع للمغامرة، هذا العقل الذي مكنا من التطور في المجال العلمي، والذي لولاه ما بلغنا المستوى التقني الحالي. هكذا يتضح تدريجيا أن الفرضيات القائلة بانغلاق الحضارات الكونية الأخرى على نفسها، تبدو صعبة القبول، وسيتضح فيما بعد، أنها خاطئة، جزئيا على الأقل.

في النهاية لا تبقى قائمة إلا تلك النظرية الأكثر إثارة للمخاوف والتي هي انعكاس لمشاغلتنا الحالية : التطور التقني يقود حتما إلى تدمير الذات بالنسبة للحضارة التي أوجدته.

في تلك الفترة التي ظهرت فيها "مفارقة فارمي"، كانت التكنولوجيا العسكرية قد توصلت إلى توفير فرص القضاء على كل مظهر للحياة على الأرض. هذا على الأقل ما كان يعتقد الإنسان. كما أن التطور في هذا المجال، لم يكن قد عرف بعد أي توقف. فخلال كل مراحل تاريخ الإنسان، كان كل جيش

مخرب يترك المكان لآخر أكثر قدرة منه على إحداث الدمار. ومن كل الاختراعات المخصصة لحمل الموت، ما من واحدة احتفظ بها في العلب التي تغلفها. فمن المعقول أن يتم التفكير بأن الحضارة التي أوجدت وسائل تدميرها الذاتي، لن تتورع عن استعمالها، لذلك فهي غير قادرة على التواصل إلا خلال بضعة آلاف من السنين.

ولحسن الحظ أن هذه الفرضية أيضا خاطئة.

## VII - الحقيقة

تحتضن مجرتنا اليوم، أقل من ألف حضارة ، ظهر أغلبها قرب مركز دورانها، في تلك المنطقة التي تكون فيها المادة أكثر ما تكون. وهي تحتضن أيضا أكثر من ذلك بعشرات المرات من أشكال الحياة ذات مستوى الذكاء الأدنى من ذكاء الإنسان، ولكنها أشكال من الحياة مرشحة لإقامة مجتمعات تكنولوجية في المستقبل. ومن بين هذه الأشكال للحياة، يكون قرابة النصف، "ذاتية الوجود" أي أنها ظهرت تلقائيا، أما النصف الآخر فهو "مدعوم" ، أي بعبارة أخرى قد تلقى دعما خارجيا لكي يتمكن من الظهور للوجود. هكذا كان الأمر بالنسبة لحضارة الإنسان. ولقد كنا محظوظين لأن ذلك الدعم الخارجي جاءنا من كائنات مقيمة على مسافة قريبة منا لا تتجاوز الألف سنة ضوئية، في حين أن المسافة القصوى بين طرفي مجرة درب التبانة، أكبر من ذلك بمائة مرة.

فالحضارات، كما هو الأمر بالنسبة للمخلوقات المنتمية لنفس الصنف، تكون مختلفة فيما بينها، ولكنها تتبع نفس البرنامج الذي ينضوي تحته مراحل نموها وتطورها: من الطفولة إلى المراهقة، إلى البلوغ... وهي مراحل مشابهة في امتدادها وتتابعها لتلك التي تحدث في حياة الإنسان، لا تنقصها إلا مرحلة واحدة، وهي مرحلة الموت. فإذا كان الموت في مرحلة الطفولة مميزا للإنسان، فهو أقل حدوثا في حالة الحضارات، وهو دوما حدث عرضي. ذلك أنه ما أن يتمكن جنس عاقل من تخطي مرحلة تدمير الذات، حتى يواصل المسار الذي رسمته له الطبيعة، وهذا المسار لا يقوده إلى التلاشي، ولكن إلى نوع ما من الغياب عن الوعي.

فالمرحلة التي بلغها الإنسان اليوم، تضع الجنس البشري، عند مرحلة حاسمة من وجوده. فنحن نعتبر أن اكتشاف النار واكتشاف العجلة، يمثلان تطورا أساسيا على مسار التطور الذي عرفه الجنس البشري. وقد يكون ذلك صحيحا، فيما يتعلق بكوكب مثل الأرض، ولكن كيف سيكون الأمر على كوكب آخر مختلفة فيه، بشكل جذري، الجاذبية والظروف المناخية؟ وإذا ما اعتمدنا

وجهة النظر الكونية التي تبناها العلماء المهتمون بهذا الموضوع في جميع أنحاء المجرة، فسيوضح لنا أن أهم مراحل السيرورة التي قادت الإنسان إلى مستواه الحالي، هي مماثلة لتلك التي عرفتها الأجناس المتطورة الأخرى بالمجرة فالوازع الاجتماعي المتوفر لدى الذئاب والجراد، مثلا، يمثل المرحلة الأولى لتلك السيرورة. ولكن الإنسان كان الكائن الوحيد الذي أمكنه تخطي المراحل الموائية المتمثلة في تصنيع الأدوات، وهي المرحلة الجينية في تركيز التكنولوجيا، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الدولة العالمية، ثم محاولة السيطرة على النظام الشمسي. والإنسان اليوم على أهبة المرور إلى المراحل الموائية: التمكن من الحفاظ على كل المعرفة والتحكم في اللغة الكونية التي تمكنه من التخاطب مع الحضارات الذكية الأخرى. ثم تأتي بعد ذلك المراحل الموائية المتمثلة في اختراع الآلة التي ستصنع المادة والتمكن من إيجاد المادة الحية، وعلى وجه الخصوص، التوصل إلى تعطيل التطور والحد من نسقه. ولكن الإنسان مازال لم يبلغ تلك المرحلة، فتطوره مازال في بداياته.

لو تمكن الإنسان من التعرف الدقيق على مراحل تنامي حضارة ما، فإن ذلك سينفي على "مفارقة فارمي" صفة المفارقة، إذ سيبدو لنا عندها التطور كسيرورة خطية تقود حتماً إلى ازدهار الثقافة وانتشار المعرفة. هذا هو الدرس الذي وعيناه خلال تاريخنا القصير، ولكنه لا يفسر النسيان الذي تركتنا فيه تلك الكائنات التي دعمت تميز الجنس البشري بالقضاء على "الزواحف المجنحة".

كان التطور في بيئة مختلفة تماماً عما عهدناه، قد أكسب تلك الكائنات مظهر الحلازين الزاحفة على الأرض الملساء، فوق كوكب تبلغ الجاذبية عليه، خمس مرات الجاذبية الأرضية. أما نظام التناسل الذي يحكمها، وهو المتداول في الكون، فقد كان قائماً على ثلاثة أجناس مختلفة: الذكر والأنثى والمنشط. أما التزاوج لديها، أو بالأحرى التجاذب، فقد كان يمتد طويلاً ويشغل نصف وجودها. ومع ذلك فإن في الوقت الباقي، كفاية لكي تفكر تلك الكائنات في أشكال الحياة القائمة خارج كوكبها. وما أن تمكنت هذه الكائنات من التكنولوجيا التي حققت درجة ما من التقدم، حتى قامت بإرسال دفق من الطاقة العاقلة في اتجاه الشمس، وأمكنها بذلك القضاء على "الزواحف المجنحة". بقيت تلك الكائنات مدة ثلاثة آلاف سنة على اتصال بالآلات المسيطرة على الأرض، ولكن الرسائل التي كانت تتلقاها من ذلك الكوكب البعيد لم تكن تسترعي انتباهها كثيراً. فقد كانت تلك الكائنات تطمح إلى العثور على حضارة أخرى في نفس مستوى حضارتها أو أرقى، ولكنها لم تعثر عليها. كانت تلك الكائنات على اطلاع على

"مفارقة فارمي" قبل أن يتوصل إليها الإنسان، وكانت تنتظر ذلك اللقاء لكن دون جدوى، إلى أن اقتنعت بأن بحثها ذاك لا طائل من ورائه.

كانت تلك الكائنات قد تخلصت من سيطرة المادة، وطبعاً فهي قد تخلت منذ قرون، عن أجسامها الهشة الشبيهة بالحلازين، واتخذت لها قشرة صلبة، قادرة على وقايتها من كل الحوادث الطارئة. وكانت تلك القشرة في نفس الوقت آلة تمكنها في نفس الوقت من التنقل في كل الاتجاهات. ولكن تلك الكائنات لم تكن قد اكتشفت كيفية تصدير حياتها إلى الفضاء الافتراضي، إلا حديثاً، بحيث أصبحت في غير حاجة إلى التموّضع في الفضاء الكوني، كما كان الأمر بالنسبة للكائنات العاقلة التي سبقتها، فقد استنتجت تلك الكائنات أن سعيها للاتصال بأصناف أخرى من الحياة الكائنة خارج كوكبها، ليس فقط غير ذي جدوى، بل فيه تدمير لنظام الكون. لقد فهمت تلك الكائنات القانون الكوني، وفهمت أيضاً أنها قد قامت باختراق ذلك القانون.

## VIII - زجاجة وسط البحر

قامت وكالة الفضاء الأمريكية، "الناسا"، يوم 5 سبتمبر 1977 بإرسال مركبة "فوياجير 1" الفضائية في اتجاه الفضاء الكوني لاكتشاف الكواكب الأخرى، وكان ذلك بعد أسبوعين من إطلاق المركبة التوام لها "فوياجير 2". كان الرقم المقترن بكل من هاتين المركبتين في ترتيب معاكس لموعدي إطلاقهما، وذلك مراعاة لتاريخ انفصال كل منهما عن النظام الشمسي، وهو موعد مرتبط بالجاذبية التي تحكم الكواكب، وكذلك بموقع كوكب الأرض من الفضاء الكوني عند إطلاق المركبتين. وإذا ما قمنا بتمثيل مساري المركبتين على خط مستقيم، فسنبين أنه سرعان ما يتم التحاق "فوياجير 1" بـ "فوياجير 2".

كانت "فوياجير 1" هي الآلة التي وجهتها البشرية لاستكشاف وجود أي حضارة خارج كوكب الأرض، وقد حملت كمثيلاتها "فوياجير 2" برسائل مقتضبة مرئية ومجسمة وصوتية، يعتقد واضعوها أنها سهلة الفهم من متلقيها. ولكن هذه الرسائل لن تقترب من النجم الأقرب من الأرض إلا بعد سفر يمتد 40 000 سنة. وخلال هذه المدة التي ستستغرقها هذه الرحلة، ألن يكون في مستطاع الإنسان أن يدرك تلك المركبة باستعمال مراكب أخرى مأهولة وأكثر تطوراً؟

كثيرا ما تتم مقارنة مركبة "فوياجير 1" بالزجاجة الملقاة في البحر، كذلك القوارير المحملة رسائل والتي يلقي بها أولئك الذين تتحطم مراكبهم، فيبقون وحيدين وسط أمواج المحيط. والمقارنة لا تخلو من أهمية، ذلك أنه إذا ما افترضنا أن إحدى تلك الرسائل قد أودعت البحر على أحد شواطئ إسبانيا، خمس سنوات قبل انطلاق الأسطول الذي جهزته الملكة "إليزابيث" الإسبانية لاستكشاف الهند عن طريق الغرب، وإذا ما افترضنا أن قوة التيارات البحرية كافية لكي تسمح لتلك الزجاجة بقطع مسافة كيلومتر في اليوم في اتجاه القارة الجديدة، فإن طاقم الباخرة "سانتا ماريا" (التي كان عليها كريستوف كولمبس) كان بإمكانه إدراك تلك الزجاجة، وسط المحيط الأطلسي. ولكن لو تم إلقاء الزجاجة في المحيط قبل ذلك الموعد الذي افترضناه، لكنت قد أدركت أمريكا قبل وصول "كريستوف كولمبس" إليها.

نفس الوضع يمكن أن ينطبق على المركبة التي أرسلها الإنسان في اتجاه الكون، مع فرق بسيط هو أن المحيط الذي ستقطعه يبدو متسعا بشكل يوفر لنا من الوقت ما يكفي لاختراع مركبة أكثر تطورا وسرعة يكون بإمكانها إدراك "فوياجير 1" قبل نهاية رحلتها. يمكننا أن نكون على يقين، في صورة ما لم تدمر البشرية نفسها، أن "فوياجير 1" لا تتوفر لها أية فرصة لكي تكون سفير الإنسان إلى الفضاء الكوني.

## ARCHIVE

ولكن ماذا في خصوص تلك الرسائل التي يوجهها الإنسان في شكل أمواج راديو، عن قصد أو عن غير قصد، إلى أمثاله من الكواكب الأخرى في الكون؟ تنتقل هذه الذبذبات بسرعة الضوء، وهي سرعة لا يمكن أن تجاوزها نظريا، أي جسم مادي. تلك الكائنات التي ندن لها بالحياة والتي كانت مسيطرة على الأرض خلال الحقبة التي عرفت الديناصورات، والتي كانت تراعى من مسافة ألف سنة ضوئية، والتي يبدو أنها اليوم لا وجود لها في أي مكان خارج الفضاء، تلك الكائنات ما أن أدركت كم كانت مزعجة محاولاتها للاتصال بحضارات أخرى، حتى بذلت كل ما في وسعها لإيقاف تلك المحاولات. أما بالنسبة لكوكب الأرض، فالضرر كان قد حصل، والزواحف المجنحة انقرضت، وظهر "الإنسان العارف" (Homo sapiens) قد أصبح مسيطرا على برامج التطور. ولكن تلك الرسائل الموجهة إلى مختلف أنحاء المجرة بسرعة 30 ألف كم/الثانية، مازالت مواصلة رحلتها.

توصلت تلك الكائنات في أقل من قرن، بعد أن جندت كل ذكائها لخدمة هذا الهدف المتفرد، إلى اختراع كيفية استرجاع دفق الطاقة الذي وجهته إلى

مختلف أصقاع المجرة. كانت تلك الكائنات قد أدركت أن المرحلة الحاسمة في حياة كل حضارة عاقلة، تتمثل في التمكن من السفر عن طريق المنافذ الزمكانية والتخلص نهائيا من ذلك الحاجز الذي كنا نعتقد أنه غير قابل للاختراق، أي سرعة الضوء. فقد بلغت الذبذبات التي كانت ترسلها سرعة عشرة مليون كم/الثانية وبذلك أصبح بإمكانها أن تدرك في القريب العاجل، الذبذبات التي أرسلتها قبل ذلك ببضعة قرون، وأن تصدر لها الأمر بالتوقف عن الانتشار.

كما سبق أن حدث ذلك للعديد من الحضارات من قبل، فإن هذه الحضارة المتطورة قد تلاشت واختفت من مجال الحضارات الأخرى، فهي قد أوقفت الإشعاع الذي قامت بإرساله في اتجاه الحضارات الكونية الأخرى المماثلة. حدث ذلك، كما يتم إطفاء مصباح كهربائي بمجرد الضغط على زر.

في ما عدا الأرض، لم يكن أي كوكب مأهول آخر قد تلقى تلك الإشارات الصادرة من ذلك الموقع من المجرة، حيث كانت تلك الحلازين العاقلة التي أدركت المرحلة القصوى لتطورها. ونظرا لقرب موقع ظهور هذه الحضارة من النظام الشمسي، فقد تمكن ذلك الإنسان من أن يشهد الحياة. ولكن تلك الكائنات الموجودة على مسافات أبعد - على أكثر من خمسة آلاف سنة ضوئية، وهي المدى الأقصى الذي أدركته تلك الإرساليات - فإنها لم تظفر بنفس الدعم الذي حظي به الإنسان، وتم كل شيء في محيطها، وفق قوانين الطبيعة، في ما عدا طبعا أولئك الذين تلقوا دعما من مصدر آخر.

بعد أن حدث ذلك الانفجار الفجني الذي دمر تلك الحضارة، واصلت تلك الروبوتات التي ركزت على الأرض مهمتها. قامت تلك الروبوتات خلال ملايين السنين، بمتابعة الحيوانات على سطح الأرض، ولم تكن تتدخل إلا عند الضرورة القصوى. وكان ذلك يتم دائما دون عنف، فقد كانت تتقذ من الحوادث الطارئة أو من الاعتداء، آخر الأفراد الحامل لإحدى الجينات الموعودة للتطور، كما كانت أيضا توفر ظروف الالتقاء بين فردين يتوقع أن ينتج عن تزاوجهما شريحة واحدة بالمستقبل الأفضل، وبذلك لم تضطر تلك الروبوتات إلى التدخل في توجيه مصير الحياة إلا حوالي عشر مرات، ولكنها لم تقدم مرة أخرى على اقتراح جريمتها البشعة التي بدأت بها مهمتها على سطح كوكب الأرض.

وما أن وفر التطور ملابس ظهور كانن عاقل قادر على التواصل مع الآخرين، حتى اختفت تلك الروبوتات فجأة من فوق سطح كوكب الأرض. لقد

أصبح في مقدورها الآن أن تؤثر بشكل أنسب على تاريخ الإنسان دون أن تقوم بأي حركة مادية، ولكن بمجرد عرض مشهد يثير حب الاستطلاع لديه، حادثة إياه بذلك على التساؤل، أي باختصار، دافعة إياه إلى تطوير نفسه.

كان بمقدور تلك الروبوتات طبعاً أن تمكن البشرية من كل معارفها، ولكن ذلك غير وارد في نطاق مهمتها. وكان من الضروري أن يحدث التطور ببطء وتدرجياً، وأن لا يتغطف الإنسان أبداً إلى الدعم الذي تلقاه من تلك الكائنات التي كانت ترعاه من خارج كوكب الأرض، على الأقل إلى اليوم الذي تفرض فيه هذه الفرضية نفسها على تفكيره.

## IX - خاتمة

لم تنته بعد تلك المسرحية التي مثلتها تلك الروبوتات الرائعة مع الإنسان، وتسلمل أحداثها يبدو مجانباً للمنطق. ولكن عندما تظهر أشياء غريبة في السماء وتحرك أمام أنظارنا بسرعة غير معقولة، وفق مسارات غير معهودة، وتظهر فجأة لكي تختفي بسرعة أكبر. وعندما تنزل تلك الكائنات العجيبة من مراكبها الفضائية والتي تبدو لنا ككائنات قادمة من الفضاء، لكي تقوم بجولة قصيرة، وتظهر لنا كما لو أنها تتجنب أي لقاء مع الإنسان، لكنها تلجأ أحياناً إلى استنارته، فإنه يكون من السذاجة يمكن، محاولة تبين المعنى من كل هذه الأوضاع.

قد يغيب عن فهمنا معنى تصرفاتها مادامنا نجهل أسبابه، ولكن كل ذلك يبدو استكمالاً لمهمة كلفت بها منذ بداية الحقب الجيولوجي الثاني... ويبدو أن نهاية هذه المهمة مازالت بعيدة....

ألان روستوف - 2001

## ما هي مفارقة فارمي؟ (Enrico Fermi, 1901-1954)

ارتبطت هذه المفارقة باسم عالم الفيزياء الإيطالي "أنريكو فارمي" (Enrico Fermi, 1901-1954) والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء سنة 1938 لأعماله في حول "التفاعلات الذرية المتتالية". ولكن شهرته اقترنت أكثر بالمفارقة المعروفة باسمه والراجعة إلى حادثة بسيطة، كما يروي ذلك زميله عالم الكواكب "كارل ساغان" (Carl Sagan).

فخلال صيف 1950، كان "فارمي" يشغل بالمخبر الوطني "لوس الموس" (Los Alamos)، وعندما كان منصرفا إلى المطعم مع ثلاثة من زملائه، كانوا يتبادلون الحديث حول رسم كاريكاتوري ظهر بصحيفة "نيويورك". وكان الرسم يتناول موضوع تكرار سرقة أواني القمامة بنيويورك، وقد اختار الرسام أن يجسم ذلك برسم طبق طائر وقد أرسى على كوكب وحوله مجموعة من الأشخاص الخضر يسعى كل منهم إلى حمل أحد صناديق القمامة كما لو كانوا عاندين بها من الأرض.

وخلال ذلك النقاش سأل "فارمي" العالم "إدوارد تيلر" (Edward Teller)، مخترع القنبلة الهيدروجينية، إن كان قادرا على تقدير احتمال أن يتم خلال العشرية الموالية التوصل إلى دليل على وجود أجسام تتحرك في الفضاء الكوني بسرعة الضوء؟ وهو يعني من وراء ذلك، أن كل كائن كوني قادم من خارج الأرض في حاجة إلى التحرك بتلك السرعة لكي يمكنه الوصول إليها من الكواكب الأخرى. ونظرا لأن النقاش كان بين أهل الاختصاص، فقد أجاب العالم "تيلر" (E Teller) بكامل الجدية، بأن ذلك الاحتمال لا يتجاوز واحد على مليون، وهو ما بدا "لفارمي" ضعيفا جدا، وقدر ذلك الاحتمال بحوالي عشرة في المائة. وكانت المجموعة قد وصلت إلى قاعة الطعام، فتوقف النقاش عند ذلك الحد.

وأثناء الأكل، بدا "لفارمي" أن يقف متسانلا: "ولكن أين هم؟...". (تلك هي مفارقة فارمي) وانفجر الجميع ضاحكين، وقد فهم الجميع أنه يعني القادمين من خارج كوكب الأرض. ولكن تفكير "فارمي" في الموضوع، لم يتوقف عند ذلك الحد، فهو يرى أن الأرض أقل قدما من بقية الكون بعديد مليارات السنين. وفي صورة قبولنا بفكرة وجود حضارات تقنية متقدمة خارج كوكب الأرض سواء في السابق أو حاليا، فإن إحداها على الأقل بإمكانها السفر بين الكواكب والسيطرة على البعض منها، وهو ما يجعلنا نتوقع زيارة كائنات كونية لكوكبنا، إذ لا شيء يجعلنا نفترض أننا أكثر الكائنات الكونية تطورا تقنيا.



سعى "فارمي" للبرهنة رياضيا، على أن السيطرة على المجرة لا يتطلب إلا بضعة ملايين من السنين، ولكنه يتساءل: "لماذا لا نلاحظ ذلك في الكون من حولنا؟". مادامنا لم نثبت وجود حضارة متقدمة تقنيا خارج كوكبنا، فذلك يعني أن الفرضية الأساسية التي اتبني عليها هذا التفكير تشكو من خطأ ما، وذلك يقود حتما إلى أن حضارة الإنسان (العاقلة) هي الوحيدة التي تعمر المجرة.

من هنا انطلقت عدة فرضيات متناقضة ضد أو مع النتيجة التي توصل إليها "فارمي"، تقوم كلها على تصور انطلاق الإنسان نحو الكواكب الأخرى أو انتظار زيارة الكائنات المتطورة الأخرى لكوكب الأرض. ولكن عدة فرضيات ترى أن بعض هذه الحضارات التقنية المتقدمة غير معنية بالسيطرة على الكواكب الأخرى. وإن كان الإنسان يتخذ من حضارته مثلا على الرغبة في السيطرة والاكتشاف، فهو قد لا يمثل القاعدة.

في حين ترى فرضية أخرى "أنه لا يمكن لصنفين من الكائنات تقاسم نفس المجال الحيوي إلا بنفي وجود الآخر"، وهو ما يفسر لماذا لم يبق إلا الإنسان على سطح الأرض.

ولكن عند تصور امتداد فضاء المجرة التي ننتمي إليها، يتضح أن السيطرة على مواقع منها يتطلب مدة زمنية طويلة، وحتى باعتماد تقنية المراكب الفضائية المتوفرة للإنسان اليوم فإن الوصول إلى أقرب الكواكب من الأرض يتطلب عدة قرون، كما أن تركيز حضارة ما على كوكب آخر يتطلب عدة قرون أخرى، بحيث تتطلب كل مرحلة للتوسع في السيطرة على الكواكب، ما بين ألف وعشرة آلاف سنة. وإذا ما اعتبرنا أنه يمكن مضاعفة عدد الكواكب المأهولة كل عشرة ألف سنة، فإن السيطرة على كل كواكب المجرة (حوالي 10 مليار كوكب<sup>16</sup>)، يتطلب أقل بقليل من 500 ألف سنة.

النموذج الذي اعتبره الإنسان للسيطرة على الفضاء الكوني، مماثل لمراحل اكتشافه للأجزاء البعيدة بالمحيطين الأطلسي والهادي، وذلك اعتبارا للمراحل التي اعتمدها في ذلك، إلى أن أصبحت وسائل التنقل أكثر ملاءمة للسرعة المطلوبة للوصول إلى أقاصي الأرض. وهو ليس في حاجة للسيطرة على الكون للتنقل بنفسه في جميع الرحلات، ويمكن تصور قيام كائنات مصنعة (روبوتات) بذلك، ولكن هذه الفرضية تطرح عدة إشكالات متعلقة بالتصنيع والتواصل، وضمان السيطرة عليها.

(<sup>16</sup>) يبلغ عدد نجوم المجرة التي تقع فيها الأرض ما بين 100 و 200 مليار نجم. ويقدر عمر المجرة بحوالي 10 مليار سنة، وبذلك يكون تواتر ظهور النجوم في هذه المجرة ما بين 10 و 20 نجم في السنة، وهو تواتر ثابت منذ ما لا يقل عن 5 مليار سنة، وهذا العامل هو الوحيد المعروف بدقة في حركية وجود الكواكب.

أما الفرضيات القائمة على انتظار زيارة كائنات أخرى لكوكب الأرض، فمنها ما يجد في الأطباق الطائرة ما يدعم به موقفه، في حين ترى أخرى أن الكائنات الكونية تقوم بدراسة الإنسان من بعيد

### معادلة درايك (Frank Drake)

تسعى معادلة درايك إلى إيجاد حل رياضي للمشكل الذي وضعه عالم الفلك فرانك درايك (Frank Drake) سنة 1961 والمتمثل في الفرضية التالية:

اعتباراً للمجرة التي ينتمي إليها كوكب الأرض، وحتى في الحالة التي يتم فيها اعتبار التحرك بسرعة الضوء (300000 كم/الثانية) فإنه لا يمكن تصور التنقل إلى مجرة أخرى أو الاتصال عن طريق أمواج الراديو بالكائنات المقيمة فيها، نظراً للمسافات الكونية الشاسعة التي تفصل بين مجرات المجموعة الشمسية والمقدر أقربها بمئات آلاف السنوات الضوئية.

وقد قام درايك بتقدير عدد الحضارات العاقلة التي يمكن الاتصال بها أما في نطاق المجرة التي تنتمي إليها الأرض، وذلك بوضع المعادلة التالية :

$$N_{CIV} = F_{et} * P_{pla} * P_{vic} * P_{int} * P_{com} * T$$

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

( $N_{CIV}$ ): عدد الحضارات العاقلة التي يمكن الاتصال بها أما في نطاق

المجرة

( $F_{et}$ ): نسبة تكون النجوم في المجرة، وهو ما يساوي عدد نجوم المجرة (100 – 200 مليار نجم) مقسوماً على عمرها (10 مليار سنة). وتم اعتبار أن عدد النجوم المعروفة اليوم بالمجرة يساوي تقريباً عددها الجملي منذ وجدت المجرة. وتقدر نسبة تكون نجوم المجرة ( $F_{et}$ ) ما بين 10 و 20 نجم في السنة، وتعطي آخر التقديرات رقماً أقرب إلى 10، وتعتبر هذه النسبة ثابتة منذ 5 مليار سنة. وهذا العامل هو الرقم الوحيد الذي يعتبر على درجة مناسبة من الدقة في المعادلة المذكورة أعلاه.

( $P_{pla}$ ): احتمال أن يكون لأحد النجوم كوكب تابع (كالقمر التابع للأرض). هذا العامل أصبح تقديره أفضل اليوم بعد توسع مجال التعرف على النجوم الواقعة خارج المجموعة الشمسية. ويعتبر أن 15 % فقط من النجوم توجد على شكل منفصل، أما البقية ففي مجموعات ذات مدارات ثابتة، والبعض

من النجوم المنفردة لا كواكب لها. ويقدر هذا الاحتمال بـ 5%. بالنسبة للمجموعة الأساسية الثابتة في حركتها، وهي نتيجة حديثة نسبيا.

( $N_{pla}$ ) : معدل عدد الكواكب القابلة لاحتضان حضارة عاقلة بالنسبة لكل نجم، وذلك يعني أن النجم يتصف بخصائص "مواتية" مثل الكتلة والمسافة الفاصلة بين النجم وكوكبه التابع وغيرها...

يمكن تقسيم النجوم بحسب أحجامها فالأكبر حجما تكون على درجة كبيرة من التالى ولكنها لا تعيش طويلا، أما الأقل حجما فهي غير حارة وغير متألقة ويمكن أن يكون بها نشاط بركاني كبير. والنجوم من صنف المجموعة الشمسية تمثل حوالي 1% من المجموع، ولكن نسبة الكواكب المقبولة الحجم القابلة لاحتضان حضارة عاقلة تقدر بحوالي 10%، ولكن شروط ظهور الحياة عليها تختلف بحسب الغلاف الجوي لكل منها.

كما أن من شروط ظهور الحياة على كوكب ما المسافة الفاصلة بينه والشمس التي يدور حولها، وهذه النسبة في المنظومة الشمسية في حدود 3/1، ولكن المنطقة القابلة للتأهيل المتوفرة على مقومات الحياة لا تمكن من نسبة احتمال تتجاوز 2-4% لمجموع الكون

( $P_{vie}$ ): احتمال ظهور الحياة على أحد الكواكب القابلة لاحتضان الحياة، مرتبط بتصورنا لصنف الحياة المتوقع وقد استغرق ظهور الحياة على كوكب الأرض 3.6 مليار سنة بعد تكونها، وهي الفترة التي أمكن خلالها لطبيعة الأرض أن تصبح بها ملائمة لاحتضان الحياة (الغلاف الجوي، تقلص الحرارة على السطح، توفر المركبات الطبيعية اللازمة للحياة...)

( $P_{int}$ ): احتمال ظهور حضارة عاقلة على كوكب ظهرت عليه الحياة، فرضية معقدة تستند على عديد الشروط التي تختلف حولها الآراء، ولكن باستقراء واقع الإنسان على الأرض، فهو لم يظهر إلا منذ حوالي 4 مليون سنة ولكن حضارته لم تتطور بشكل مطرد إلا خلال الخمسين ألف سنة الأخيرة، وتعتبر الخمسون سنة الأخيرة هي التي جسدت تطلعه للنظر إلى الكون من حوله ومحاولة الاتصال به، إذ أن المراكب الفضائية حديثة نسبيا، وهي تقنية لم تتخلص تماما من عدة معوقات مثل الوقود اللازم للسفرات طويلة المدى، وكيفية التخلص من الجاذبية وحماية المراكب خارج الفضاء الكوني، وغيرها..

( $P_{com}$ ): احتمال قيام حضارة عاقلة بتطوير وسائل اتصال مع عوالم أخرى. قياسا على الحضارة الإنسانية يقدر هذا العامل بحوالي 1/4.

(T): المدة الزمنية التي يمكن خلالها اكتشاف وجود اتصال الحضارة العاقلة بالعوالم الأخرى، أي مدة حياة تلك الحضارة الساعية للاتصال بغيرها. هذا العامل غير محدد تماما، وما زال الإنسان منذ ما يزيد عن مائة سنة، يحاول

الاتصال بغيره في الكون دون جدوى، وهو أكثر وعياً اليوم بتعدد الفرضيات التي قد تتسبب في نهاية حضارته انطلاقاً من تدهور وضعية المنظومات البيئية على سطح الأرض ووصولاً إلى الخطر النووي أو تعرض الأرض لأحد المذنبات الطائشة.

تعتمد هذه المعادلة على ستة عوامل جذا، تقدير أغلبها تقريبي، وبذلك نكتشف مدى محدودية معرفتنا بالكون من حولنا. وأفضل الحلول العددية المتفائلة لهذه المعادلة التي تعطي عدد الحضارات العاقلة التي يمكن الاتصال بها أما في نطاق المجرة، فتأخذ القيمة التالية:

$$N_{CIV} = 20 * 5\% * 0.01 * 1 * 1 * 1/4 * 10^8 = 250\ 000$$

أما أفضل الحلول العددية المتشائمة لهذه المعادلة والتي تعطي عدد الحضارات العاقلة التي يمكن الاتصال بها أما في نطاق المجرة فتأخذ القيمة التالية:

$$N_{CIV} = 10 * 5\% * 0.001 * 0.1\% * 1/10 * 1000 = 5.10^8$$

ولكن في واقع الإنسان الحالي لا يتجاوز هذا العدد الرقم 1، إذ لم يتأكد بعد وجود حضارة أخرى غير حضارة الإنسان ومن هنا كانت المفارقة كبيرة بين ما يقود إليه التفكير المنطقي وما يعيشه الإنسان كواقع، وفي انتظار تغير المعطيات يمكنه دائماً أن يناقش مفارقة فارسي على أساس خلل ما في أحد عواملها.

## النشر الإلكتروني ومواقع القصة القصيرة العربية على الشبكة

الكيلاني بن منصور

لم يعد من الضروري بالنسبة للقارئ العربي أن ينتظر دورة من دورات معرض الكتاب الدولي حتى يتمكن من مطالعة كتب أحد الأدباء التونسيين أو غيرهم من الكتاب والمفكرين. وليس من الضروري تكبد مشاق التجوال بين المكتبات المختلفة للظفر بمجموعة قصصية معينة أو رواية لهذا الكاتب أو ذاك. اليوم يكفي كتابة اسم الكاتب على محرك بحث إلكتروني ضمن قوائم النشر الإلكتروني حتى تعرض على الشاشة قائمة طويلة تحمل كل شيء عن الكاتب، ليس فقط كتاباته بل أيضا ما كتب عنه في المعاجم والقهارس والموسوعات والمجلات والصحف وحتى ما كتب خارج هذه الأطر بصفة شخصية من قبل أصحاب المواقع في مجال الكتابة الإبداعية بجميع أصنافها وفي شتى المجالات الأخرى علمية وفلسفية وفكرية وتقنية ضمن الحقول المعرفية الشاسعة.

وبالمقابل فإنه لن يكون له حضور على الساحة الثقافية إذا ما أصرّ على التقيد بقنوات التبليغ التقليدية: الورقية من مجلة وكتاب وصحيفة، والمباشرة مثل التظاهرات والملتقيات. ولن يكون له حضور لدى القراء الذين بدؤوا يتحولون عن القنوات التقليدية ويفضلون عليها بدائل أخرى أكثر ارتباطا بالتقنيات الرقمية للتزود بالمعرفة، مثل «روكيت اي بوك» (Rocketbook) وهو جهاز في حجم الكتاب الورقي الصغير وتبلغ سعته التخزينية ما يعادل عشر روايات أو «السوفت اي بوك» (Software abook) والذي تعادل سعته التخزينية ست روايات، إلى جانب إمكانية حمل الكتب والمنشورات من المواقع المختصة مثل موقع الأمازون (Amazon) روكيت الأمريكي (Rocket) بسرعة مائة ورقة في الدقيقة.

اليوم، أصبح الكتاب والروائيون وسائر منتجي المعرفة والقراء أمام حقيقة لا يمكن تجاهلها تقوم على أن العالم يشهد «انفجارا معرفيا لم تعد الوسائل

التقليدية، من كتب يدوية ومراجعة إلى صف وطباعة وإخراج وتوزيع وانتشار،  
قادرة على مجازاة الجديد أو هي مقبولة لدى المستفيد... ومن هنا تبرز أهمية النشر  
الإلكتروني فهو ليس فقط وسيلة سريعة لنقل المعرفة عبر قنوات الاتصال  
(الانترنت) أو متيسرة مثل الوسائط المتعددة (المليمتيديا) أو ذات كثافة تخزينية  
عالية لمجازاة السيل العارم من الجديد والمتجدد أو كلفة أقل كما يشاء.. إنما أداة  
تخاطب وتبادل جديدة بين البشر وغير مسبوقه<sup>(1)</sup>.

«سهولة البحث دون الحاجة إلى قراءة النص بكامله

— سهولة الحذف والإضافة والتعديل والتغيير في أي وقت يريده المؤلف

— نقل أجزاء من النص دون الحاجة لإعادة طباعتها من جديد

— صغر حجم وسائط التخزين وقدرتها الهائلة على نقل مكتبات بأكملها في

قرص أو شريحة ذاكرة مماثلة في الحجم لعلبه السجائر أو أصغر

— سهولة الانتقال من النص الأصلي إلى المصادر والمراجع المثبتة في

الحواسي بمجرد النقر على اسم الكتاب المصدر أو المرجع وتصفحه ثم العودة إلى

الموضوع الأصلي

— الكتابة باستخدام الأوامر الصوتية والكمبيوتر أصبح يتعرف على صوت

مستخدمه ويتولى الكتابة بدلا عنه عن طريق الإملاء الصوتي وبسرعة المتحدث

— تطور إمكانية التدقيق الإملائي واللغوي للنصوص بل أن برمجيات تنسيق

النصوص تقوم بالتعرف على أخطاء الكاتب وتقوم ألبا بتصحيحها دون حاجته

إلى المراجعة الشخصية.

— تطور وسائل المسح للنصوص بما يمكن من إثراء المحتويات الرقمية

وتعميم الفائدة القصوى من تلك المحتويات الرقمية إضافة إلى إمكانيات الترجمة

الآلية للنصوص إلى أي لغات العالم دون الحاجة لمن يقوم بترجمة نصوصنا

وخاصة العلمية منها<sup>(2)</sup>.

المسألة اليوم مصيرية وحاسمة بالنسبة لنا نحن الذين نتنفس الكتاب

الورقي ونعشق رائحته، ونعتبره كنزا ثميننا سيستفيد منه الجيل بعد الجيل.

ليس بالأمر الهين أن يتم التخلي عن هذا الصديق الذي هو الكتاب أو المجلة أو

الصحيفة وقد تربينا على أن نعدّه «خير جليس في الأنام»، «فهل أصبح الكتاب

الإلكتروني يمثل تهديدا صريحا للكلمة المطبوعة ؟ وهل يمكن أن يقضي عليها ؟

إن الثورة التي أحدثها «غوتنبرج» في مجال الكلمة المطبوعة باختراعه الحروف

(1) أحمد بشارة : قارئ المستقبل بحث مقدم لندوة العربي أفريل 2001 كتاب العربي عدد 55 ص 79.

(2) سعود راشد العنزي : كيف يستخدم العرب الأنترنت، نفس المصدر السابق.

المعدنية المنفصلة كانت النواة والركيزة الأساسية لتطور عملية الطباعة وتطورها فيما بعد حتى وقتنا هذا... والآن صارت تفاجئنا التكنولوجيا بمنتج جديد... يمثل تحدياً للكلمة المطبوعة ألا وهو الكتاب الإلكتروني الذي سيغير بلا شك وجه القراءة...»<sup>(3)</sup>.

وفي نهاية المطاف ورغم سخافة السؤال وبساطة الطرح، إلّا أنّنا نبقي نردد في كل حين ولو عن طريق الهمس والمناجاة «هل ستستطيع الكتب الإلكترونية تغيير عادات الناس الذين اعتادوا على قراءة الكتب المطبوعة؟ بالنسبة لكبار السن فقد أكدوا أن ذلك مستحيل، ولسوف تظل مكتباتهم وما تحويه من روائع مصدر فخرهم واعتزازهم في الوقت الذي يحمل فيه شاب كتاباً إلكترونياً واحداً يحوي أكثر مما تحويه أرفف كاملة في مكتبة أي شخص آخر»<sup>(4)</sup>.

فهل كانت هذه الأسباب أو البعض منها على الأقل أو أسباب أخرى، وراء التجاء عدد من كتاب القصة القصيرة العربية إلى النشر الإلكتروني على شبكة الأنترنت عن طريق المواقع المتخصصة أو بإقامة مواقع إقليمية أو محلية أو شخصية أو جامعة؟ وإن كان البعض منهم يتعلل بمواكبة الحداثة والتطور أو بالتخلص من مشاكل النشر والطباعة والإيداع القانوني والرقابة، أو ضرورة التبليغ وسرعة الانتشار بين جمهور القراء أو البحث عن آفاق جديدة أرحب مما يبلغه الكتاب الورقي، تمكن من استيعاب الإنتاج الإبداعي المتزايد كما وانتشاراً، فإن المسألة في حاجة إلى نظرة متأنية وإعابة لأن النشر الإلكتروني للإبداع وخاصة القصة، أوجد مشاكل جديدة في مستوى التقنية المستعملة والمضمون المحتل من كل المعايير التقييمية، هذه الورقة غير قادرة على الإلمام بها أو ادعاء تحليلها باستفاضة، ولكن سوف نقدم بعضاً من المواقع المتخصصة في القصة -على كثرتها- حتى يتمكن القارئ من الإطلاع عليها وتقييمها بنفسه.

### مواقع القصة القصيرة العربية على الأنترنت

كثيرة هي المواقع الإلكترونية المخصصة للقصة القصيرة وللنقد السردى وكل ما يتصل بالسرديات العربية وهي في مجملها إما مواقع متخصصة في القصة لا تهتم إلا بالقصة القصيرة نشراً ونقداً وتوثيقاً، أو هي مواقع ثقافية عامة تهتم بالقطاعات الثقافية بمختلف أصنافها وأشكالها من قصة ورواية وشعر وخاطرة وسيرة ذاتية وكتابة فكاهية وكاركاتور وأعمال فكرية ودينية وغيرها، أو هي

(3) د جيهان الشناوي: الكتاب الإلكتروني يغير وجه القراءة، نفس المصدر السابق

(4) المصدر السابق

مواقع جامعة تهتم بالفن بصفة عامة من أغان وموسيقى وأسرة وطفولة وبرمجيات وخدمات إشهارية وعقارية وتجارية وخدمات عامة إلى جانب القصة والرواية والشعر والأدب بصفة عامة، إضافة إلى المواقع المخصصة للهياكل الثقافية والاتحادات القطاعية مثل مواقع اتحاد الكتاب العرب واتحاد كتاب العرب على الإنترنت واتحادات الكتاب القطرية في كل دولة من الدول العربية ومواقع المؤسسات مثل الألكسو واليونسكو وغيرها، إلى جانب الصفحات الرقمية التي تخصصها المجلات والصحف الإلكترونية للقصة القصيرة مثل مجلة «المقتطف» و«المؤتمر» و«الثقافة العربية» و«أبسو» و«الإسكندرية» و«الوطن» و«ضفاف» وغيرها كثيرة، علاوة على المواقع الشخصية لكتاب القصة القصيرة مثل مواقع «عدنان كنفاني» للقصة القصيرة جدا و«نجلاء محرم» للقصة القصيرة وغيرها من المواقع المتزايدة يوما بعد يوم، والتي توصلت إلى توفير جمهور يعزّ على النشر الورقي في أيامنا هذه أن يؤمنه، حتى أن جريدة سيارة في تونس طالعنا منذ مدة بأن فتاة عراقية مهووسة بالإنترنت قامت بتدوين سقوط بغداد عن طريق السرد القصصي، مرشحة لنيل جائزة عالية في لندن خاصة بالقصة القصيرة، بعد أن تهافتت شركات الإنتاج السينمائي على تلك القصص المنشورة على الشبكة المعلوماتية، وأصبحت تلك الفتاة العراقية، كاتبة تلك النصوص تفاوض تلك الشركات على مقابل حقوق تأليف الأعمال السردية بملايين الدولارات، في حين يكون الكاتب التقليدي المتشبه بالطباعة لنشر إنتاجه، عقب كل إنتاج جديد، في متاهة البحث عن كيفية طباعته، فإن وجد حلا لمشاكل الطباعة، تعاورته مشاكل النشر والتوزيع، لكي يجد نفسه في النهاية، منهكا وأحيانا مقرفا لارتكابه خطيئة الكتابة والنشر، وقد يستريح سنوات يسترد فيها أنفاسه الأدبية والمالية، لكي يعاود الإصدار من جديد بعد أن تكون الأيام قد فعلت فعلها في شخصه وفكره ورغبته في الكتابة، وقد تكون السنوات التي قضاها في الكتابة تفوق سنوات عمر تلك الفتاة التي ساقها النشر الإلكتروني إلى عالم الشهرة والثراء، ولكنه يبقى دونها في التوصل إلى تبليغ إنتاجه الأدبي وفي الوصول إلى الشهرة التي يرغب فيها كل مبدع.

نظرا للتنوع وتعدد المواقع المهمة بالقصة القصيرة على الشبكة، فسنبقتصر على تقديم المتخصص منها في القصة دون غيرها، سواء منها المواقع العربية المهمة بالقصة العربية دون مراعاة جنسية كاتبها، أو المواقع المهمة بالقصة القصيرة على المستوى الإقليمي أو القطري مثل القصة المغربية أو السورية وغيرها :



### \* - موقع ألف قصة وقصة(5)

يعتبر هذا الموقع بمثابة بنك القصة القصيرة للمبدعين والكتاب العرب، تتضمن صفحة الاستقبال عدة إيقونات نفاذ تحمل العناوين التالية :

قصص الشهر/ قصص موزعة على عدد من الدول التي يشارك كتاب القصة القصيرة بها في الموقع مثل السودان وليبيا ومصر وغيرها، مع العلم أن الإيقونة الخاصة بتونس لا تزال غير قابلة للنفاذ لعدم استكمال تأييدها. أما سكرتيرة الموقع فهي حنان معلوم، وشعار الموقع هو «هو تحدّ نشهره في وجه الجهل المكتسح لعالمنا بكل دمايته، وبه نقاوم تقطع أو اصرنا مع مواطن الإبداع والجمال، وذلك أن اختفاء الكتاب/ القراءة هو ما يسمح للقيح والإقصاء بالتغلغل في ترابنا العربي، وفي ظهور بثور الكراهية، والعنف على وجه حاضرن الضاج بمواجهات خطيرة لا سبيل إلى الحدّ منها إلا بالمزيد من حرية الكلمة أولاً، حيث الكلمة الحرّة هي سبيلنا إلى الحريات كلّها»(6).

### موقع القصة المغربية القصيرة(7)

هو موقع يعنى بنشر القصة القصيرة المغربية ودراستها ونقدها وتتضمن صفحة الاستقبال عدة حقول أو إيقونات منها بيلوغرافيا القصة المغربية بداية من 1970 إلى اليوم. وأروع القصص العربية، وروائع القصة المغربية، وشيء من التاريخ وأطروحات أكاديمية وأفكار و«الكولوزيوم» القصصي، والسرديات وضاف شعريّة إلى غير ذلك من الرقمية، والكولوزيوم هو عبارة عن موقع داخل الموقع الأصلي له اهتمام بحركة التجديد القصصي ويضم نخبة من القصاصين المغاربة ومنهم على سبيل المثال : محمد منصور ومحمد تنقو ومحمد عزيز الصباحي ومحمد أشويكة.

### موقع القصة العربية(8)

موقع متخصص في نشر القصة العربية القصيرة، والتعريف بكتابها، والحوار حول تقنياتها، أسسه القاص : جبير المليحان. في حوار المفتوح في

(5) ألف قصة وقصة : الموقع على شبكة الإنترنت [www.alfkissa.com](http://www.alfkissa.com)

(6) ابتسام المتوكل : شاعرة يمنية، المصدر السابق، صفحة الاستقبال

(7) موقع القصة القصيرة : انظر قائمة المواقع ضمن موقع اتحاد الكتاب العرب ([www.medmesbahi.ma](http://www.medmesbahi.ma)).

هذا العنوان قابل للتغيير.

(8) موقع القصة العربية : انظر قائمة المواقع ضمن موقع اتحاد الكتاب العرب ([www.ArabicStory.net](http://www.ArabicStory.net))

نادي أبها الأدبي ذكر مؤسس موقع القصة العربية جبير المليحان : أن موقع القصة يضم حوالي 6 آلاف نص قصصي لأكثر من 700 كاتب وكاتبة من جميع الدول العربية ومن العرب الذين يتكلمون العربية في العديد من الدول. وقال : لقد حرص الموقع على تحمل الكاتب مسؤولية الكلمة تحت اسمه الحقيقي بحيث لا يضم الموقع أسماء مستعارة باستثناء اسم واحد لسيدة سعودية. وأضاف أننا نبحث عن النوعية وليس عن العدد، موضحاً أن الشبكة عبارة عن مشاريع متعددة متطورة استمرت منذ تاريخ تأسيسها.

### موقع فضاءات<sup>(9)</sup>

وهو موقع ليبي ثقافي يهتم بالشعر والسرد ويركز على قضايا السرد في الجماهيرية العربية الليبية العظمى وهو ثري ومتنوع الأغراض والمصادر.

### موقع القصة السورية<sup>(10)</sup>

وهو موقع يتطلب تواتراً سريعاً في الارتباط بالشبكة لكثرة تركيز مصمم الموقع على النصوص والصورة والألوان وهو موقع منهجي التعامل مع القارئ إذ يعتمد أسلوب السؤال المحير في جذب انتباه المتصفح له من قبيل ما هي القصة ؟ كيف أصبح كاتب قصة ناجحاً ؟ ما هو السرد ؟ ما هو تاريخ القصة القصيرة في سوريا والعالم العربي ؟ وينقسم الموقع إلى حقول بحث منها : واثق الخطوة / الدراسات الأدبية / أدب الأطفال / أدب المرأة.

### موقع نجلاء محمود محرم الأدبي<sup>(11)</sup>

يهتم بالإنتاج الأدبي للكاتبة المصرية نجلاء محمود محرم من المجموعات القصصية والروايات، كما يعرض لأنشطتها الثقافية وبخاصة المسابقة السنوية التي تنظمها على مستوى الوطن العربي لكتاب القصة القصيرة وتغطية دوراتها المختلفة، كما يلقي الضوء على إصدارات المسابقة الأدبية والمتمثلة في سلسلة كتاب «الفايزون» ومجلة «تواصل» واللذين يصدران خصيصاً بهدف دعم الأدباء المشاركين في مسابقة نجلاء محمود محرم للقصة القصيرة.

(9) موقع فضاءات : الموقع على الأنترنت [www.fdaat.com](http://www.fdaat.com)

(10) لقصة السورية الموقع على الأنترنت : انظر قائمة المواقع ضمن موقع اتحاد الكتاب العرب ([www.syrianstory.com](http://www.syrianstory.com))

(11) موقع نجلاء محمود محرم الأدبي ([www.naglaameh.net](http://www.naglaameh.net)) : انظر قائمة المواقع ضمن موقع اتحاد

وحسب رأي بعض الباحثين والكتاب فإن «التحول في تكنولوجيا المعرفة ليس مجرد انتقال تحول من تقنية إلى أخرى بل إنه يعني التحول إلى عقل آخر»<sup>(12)</sup>. فعندما مر الإنسان من التعبير باللغة الشفهية التي كانت تحمل في رحمها المعارف الهامة من دين وفلسفة وعلم وتأكد أن هذه اللغة لا يمكنها أن تحفظ لنا تلك الخبرة كما هي، مر إلى التدوين عن طريق الكلمة المطبوعة وقد درس العلماء منذ الستينات تأثير الكلمة على عقل الإنسان وديناميكيته النفسية. ولضمان تخزين الكلمة وسرعة تنقلها والاحتفاظ بها ومن ثم استعادتها في كل وقت انتقل الإنسان إلى الكلمة الإلكترونية. ولسنا ندري ما ستمليه علينا تسارع نبضات الزمن بعد عقد لا بل بعد عام أو ربما بعد يوم لا بل ربما بعد ساعة من الآن ؟

### الكيلائي بن منصور



---

(12) نقترح الرجوع إلى موقع اتحاد الكتاب العرب لتسهيل عملية الارتباط بالمواقع المقصودة وهو لا يعني إمكانية النفاذ عن طريق العناوين الخاصة بكل منها والتي توجد ضمن قائمة البحث على أغلب المحركات مثل غوغل.

## نادي القصة ينعى الفقيه المرحوم مصطفى الفارسي

فجعت الساحة الثقافية صباح يوم الجمعة 8 فيفري 2008 بفقدان الأديب المرحوم مصطفى الفارسي الذي يعتبر من أبرز الأعضاء المؤسسين للنادي والمرشحين للكتابة القصصية في هذه الربوع. فهو قد كان من جملة الساعين الأول لبعث نادي القصة في مطلع الستينات من القرن الماضي. وتبلى مساهمته الأدبية واضحة بمجلة النادي منذ أصدارها الأولى. ونشرت له قصة "سرقته منه القمر" بالعدد 5 من مجلة "قصص" (أكتوبر/ديسمبر 1967).

والأديب مصطفى الفارسي غني عن التعريف نظرا لما ساهم به في الأدب التونسي من كتابات في القصة القصيرة والرواية والنقد. ووقع التنويه بدوره ضمن الجيل المؤسس للأدب التونسي الحديث، وتواصل نشاطه الأدبي على امتداد ما يزيد عن الأربعين سنة في الساحة الثقافية، وكذلك انتمائه للهيئة المدبرة لإتحاد الكتاب التونسيين وإتحاد كتاب آسيا وإفريقيا. واعتبارا لدوره الريادي في المجالات الثقافية المتعددة من أدب ومسرح وإذاعة وسينما، أسند له "نادي القصة" خلال ملتقاء الدوري لسنة 2006، درع "الريشة القصصية" التي يخص بها النادي في كل موسم أحد الأديباء التونسيين المسهمين في تطوير الكتابة القصصية أو العاملين على توسيع مجال إشعاعها.

و"نادي القصة" ينعى اليوم أحد أبرز أعضائه المؤسسين ويرجو له واسع الرحمة والمغفرة ودوام الذكر الحسن بين أهل الثقافة.

«نادي القصة»

## الرواية العربية الحديثة والفنون مظاهر التعالق وآثاره في روائية الرواية الجزء الثاني : الرواية والسينما والمسرح والرسم (\*)

أحمد النايي البديري

### 2 - الرواية والسينما

إذا كانت للسينما بلاغتها وطرق تعبيرها وخصائصه وإكراهاته<sup>(58)</sup> فإن الرواية استطاعت أن تفتح على هذه البلاغة المجاورة وتستفيد منها<sup>(59)</sup>.

### 1-2 مظاهر حضور السينما في الرواية

مثل حضور الشعر في الرواية، كان حضور السينما فيها، مباشرا وغير مباشر وعن طريق المحاكاة، فقد عمد الراوي في روايته «رائحة الصابون» إلى أن يدرج في متن حكاية روايته، هذه حكاية فيلم جينكيز خان كاملة من أولها إلى آخرها، بعد أن حوكلها إلى ما تقتضيه بلاغة النص المكتوب ووازي فيما بينها وبين حكاية الرواية الأساسية، ليكون حضور السينما بهذه الطريقة حضورا مباشرا صريحا.

أما الحضور غير المباشر للسينما في الرواية، فيكون في شكل تلخيص

(\*) يراجع الجزء الأول من الدراسة في : قصص، عدد 141 - جويلية/سبتمبر 2007، ص 75 (58) يقول فرانسو فانوي : «تقوم بلاغة المكتوب على علاقة اعتبارية بين الدال والمدلول [بين الشيء المسمى واللغة التي تدل عليه أو تسميه] بينما تقوم بلاغة الفيلم على علاقة التطابق بين الدال والمدلول [بين الصورة وما تجسده]، أنظر :

Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 41.

(59) يرى يورنوف أن ظهور السينما والتلفزة غير طريقتنا في رؤية العالم وفي التقنيات الروائية. ويرى أن كثيرا من الروائيين اليوم، يكتبون للسينما والتلفزة أو هم مدفوعون إلى العمل مع المخرجين إذا لم يكونوا هم أنفسهم مخرجين. أنظر :

Bourneuf Roland & Rea Ouellet : l'Univers du roman. Ed. PUF, Paris, 1972, p 98.

سريع لهذا الفيلم أو ذاك والاكتفاء بعرض فكرة مقتضبة عنه، كما هو الأمر في رواية «شرف» : «ثم إن الفيلم بدأ في هذه اللحظة، فوجهٌ إليه اهتمامه وتابع أعاجيب شوارزينجر مبهور الأنفاس [...] علق جون على الفيلم عندما انتهى بكلمة لم يفهمها شرف»<sup>(60)</sup>.

وقد يكون هذا النوع من الحضور غير المباشر - كذلك - في إطار تشبيه ما يحدث في حكاية الرواية بنوع معين من الأفلام، مثلما وجدناه في رواية «كوابيس بيروت»، وغيرها ويمكن أن نمثل له بما يلي :

- «كانت الانفجارات كثيفة كما في فيلم حربي سيئ لكثرة مبالغاته» (كوابيس بيروت، ص 7).

- «الرؤية منعقدة... لا أدري كيف يبصر الرصاص دربه إلى الهدف وكيف ترى القنابل طريقها إلى رؤوس ضحاياها.. والجحيم القارس مروّع وكوابيسه أحلام جهنم الدافئة».

- «تماما كما في أفلام الرعب المبالغ فيها» (مصن : 199)،

- «في صبيحة اليوم الموالي حدثت المعجزة على طريقة الأفلام المصرية (مصن : 123)،

- «بعدها جالت عيناها في القاعة مثل كاميرا لا فيلم فيها» (الوباء : 38).

وإذا كان هذا الحضور غير المباشر مصرحا به، فإن الروائيين أحيانا لا يصرحون بأن ما يرونه مستمد أساسا من أفلام وثائقية مصورة عن أحداث كانت وقعت فعلا. فرواية «رسمت خطأ في الرمل» في جزء كبير منها ولا سيما حدث حرب الخليج الثانية، كانت قد استندت إلى أفلام وثائقية عن هذا الحدث، ومثلها رواية «جنين الجدار الباقي»<sup>(61)</sup> التي كانت قد عولت كثيرا على المشاهد التي وثقت بالصورة عما فعلته إسرائيل بهذا المخيم بعد انتفاضة الأقصى الأخيرة.

إن هذا النوع من الحضور يشهد بأن كتاب الرواية على بيئة عميقة ببلاغة السينما وتقنياتها، بما يتيح لهم أن يصنفوها، وأن يميزوا فيها بين الجيد والردىء وبين اتجاهاتها ومدارسها وأن يتخذوا مادتها موضوعا لحكاياتهم، وهذا يبيح القول أنهم حين كانوا يكتبون رواياتهم، يكتبونها وفي أذهانهم وعي يمثل هذه البلاغة الخاصة بالسينما، وإدراك لكيفيات اشتغالها وهذا الإدراك سوف يتضح

(60) «شرف» لصنع الله إبراهيم، دار المدى، دمشق، 2005، ص 14، وانظر منها ص 8-10 وانظر كذلك رواية «دائما ما أدعو الموتى» لسعد نوح نقلا عن محمود الضبع : تشكلات الرواية... : 313-413.

(61) أنظر : «جنين، الجدار الباقي» لخالد الأسود.

بصورة أجلى في النوع الثالث من حضور السينما في الرواية المتجسدة عن طريق المحاكاة.

فحين تحاكي الرواية السينما، تقتبس من بلاغتها كثيرا من خصائصها، ويمكن حصرها في ركائز يمكن إجمالها في الاهتمام بالجزئي من الأحداث بتتبع الراوي لما تفعله الشخصية ومحاولته نقله بكل تفاصيله الممكنة، حتى يصبح غايته كأنها «إعادة نقل مقطع من الحياة كما وقع دون انتقاء»<sup>(62)</sup>، كان يقول الراوي : «في المقهى تلمع أسنان عربي بك فوق هامة بسام بك المتدنية. تفرقع حجارة الزرد بصوت ثاقب. يستقيم قذال بسام بك وتطرق عينا عربي بك، إليهما يجيء شيش بيش. يحيي ويجلس. يشهر بسام بك يده أمام جبينه ويمدها ليصافحه. تلمع أسنان عربي بك وتبرق عيناه الزرقاوان»<sup>(63)</sup>. ومن ركائز الخطاب السينمائي الذي اقتبست منه الرواية، تقطيع السرد إلى مشاهد والمشاهد إلى لقطات صغيرة<sup>(64)</sup>. والرواية التي يمكن أن تتخذ نموذجا لهذا التقطيع، هي رواية «الف ليلة وليلتان»<sup>(65)</sup>، فقد تشكلت من مجموع مشاهد ركبت فيها على أنحاء مماثلة لما نلغيه في التركيب الفيلمي من تداخل وسرعة في التنقل من مشهد إلى آخر، ومن تقطيع للمشاهد إلى لقطات. فقد افتتح الراوي هذه الرواية بمشهد لاجتماع عباس وجماعته، ثم انتقل إلى مشهد اختراق الرصاصة ضلعي عباس وعاد إلى مشهد عباس وجماعته، ثم انتقل إلى مشهد خطبة نواف... وعاد إلى مشهد عباس وجماعته ثم إلى مشهد شيش بيش وعلي، ليعود مجددا إلى عباس وجماعته، ثم يقفز إلى مشهد الرئيس جونسون وجلساته. وهكذا ينتقل الراوي من مشهد إلى آخر، مشكلا حكايته من صور مجمعة مركبة الواحدة تلو الأخرى، لتتخرط الرواية في إطار فنّ تثبيت المتعدد مثلها مثل الفيلم<sup>(66)</sup>.

وفي محاولة التأليف بين أكثر من مستوى من مستويات التعبير، كالحركة

Von Rossum-Guyon Françoise : Point de vue ou perspective narrative. In (62) Poétique n° 4, 1970, p 481.

(63) ألف ليلة وليلتان : 263

(64) اللقطة السينمائية هي أصغر من المشهد، تقارب الصورة، وهي أنواع. المحكّ الأساسي للتمييز بينها هو قرب الصورة أو بعدها. أنظر : عبيد علي : نشاط العين : بحث جامعي مرقون. كلية الآداب، منوبة، 1995، ص 157-255. «والمشهد في السينما لا يتحدد بما يحويه من حركة ولا يتحدد بدخول الممثلين أو خروجهم، ولكن يتحدد بتغيير المكان أو بانتقضاء فاصل من الزمن». صلاح أبو سيف : كيف تكتب السيناريو. ص : 72. نقلا عن العوفي نجيب، مقاربة الواقع في القصة القصيرة المغربية من التأسيس إلى التجنيس. المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1987.

(65) ألف ليلة وليلتان : 5-8.

(66) Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 6 et 137.

والصوت والكلام<sup>(67)</sup>، يقول الراوي، في الرواية السابقة : «قبل أن يتخلف صوت الأعمى عن مسمعيهما، يتصاعد صوت أم كلثوم : ياريت زمانى ما يصحنيش. وتصيح كوكب الشرق من حانوت آخر [...] تعطل مفاجئ في حركة المرور يوقف سيرهما الصامت وينحي الصوت الإلهي : حنطور يحمل صفائح خشب موقوف أمام أحد الحوانيت وسيارتان عريضتان موقوفتان إلى جانبيه تطلقان زميرا عصبيا والحمار جاثم يغمر بعيني غمرات ناعسة فيبتعد عنهما الذباب. يغمغم علي : «ما الذي جاء بنا إلى هنا؟...»<sup>(68)</sup>.

فالكلام في هذا المشهد حاضر من خلال خطاب الأعمى وخطاب علي وخطاب أم كلثوم الحامل للأغنية. والصوت موجود من خلال الموسيقى المرافقة للأغنية وزمامير السيارات والحركة تتجسد من خلال ما يفعله علي والحمار والسيارات. ولئن كانت بلاغة المكتوب قد أكرهت الراوي على أن ينقل هذه المستويات التعبيرية منفصلة، وتعدّر عليه أن يراكب فيما بينها، مثلما تستطيع السينما أن تفعله، فإن المروي له هو الذي أوكل له هذا الدور، فهو الذي يتعين عليه تجميع هذه المستويات وإدراكها مجتمعة.

وقد يبلغ أحد الروائيين عن البلاغة الفيلمية، إنهم يعدمون الحدث فيشيرون إليه بمصدر فحسب، على الطريقة التي يكتب بها السيناريو :  
« [...] وينتفخ وجهه الأيمن بقضمة هائلة.

صمت. صمت تام  
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

أي انفعال يظهره المحافظ سيعمل ضده»<sup>(69)</sup>.

وقد اقتبست الرواية من بلاغة السينما المراكبة بين الأشياء وتكديسها دفعة واحدة والاكتفاء بذكر اسمها أو ماهيتها، دون التمعن في وصفها : «على رفوف الثانية تبكّن خولة وشكيب : فستانان، كندرة، أربعة أثواب داخلية، كنزتان، قميصان، تنورتان، مشط كبير، مرآة صغيرة، ملقط حواجب، وبزة مدنية، وبزة عسكرية، صدارة، بوط [...]»<sup>(70)</sup>. فالواصف في هذا المشهد لم يستثن شيئا مما وقعت عليه عينه. وكان شغله أن يرى الموصوف له الصورة بجزئياتها الصغرى،

(67) مص ن : ص 40، حيث يقول فرانسوا فانوي : «في التحليل الأخير فإن التداخلات بين مستويات مختلفة من التعبير، هي التي تضع خصوصية الحكاية الفيلمية التي ينبغي أن تكون مدركة بأقصى سرعة ممكنة». والمستويات التعبيرية المختلفة هي الصوت والكلام والحركة. انظر مص ن : 36.

(68) إلف ليلة وليلتان : 43.

(69) مص ن : 1973.

(70) «الوباء» لهاني الرابع، ط 2، دار الآداب، بيروت، 1992، ص : 122.



يدفعه طموح إلى محاكاة بلاغة السينما أو بلاغة الصورة<sup>(71)</sup>.

إن ما عرضناه من كيفيات حضور السينما في الرواية ودرجات هذا الحضور المباشر وغير المباشر، التي تجسدت من خلال أوجه كثيرة كالاهتمام بالجزئيات ومتابعة الشخصيات فيما تفعله في أدق دقائقه ومراكمة الموصوفات والاهتمام بالأشياء ومحاولة الجمع بين أكثر من مستوى من مستويات التعبير... يؤكد انفتاح الرواية على بلاغة السينما، وقد وجد فيها الروائيون ضالته، فاستعاروا منها ما به يسلكون مسالك جديدة في التجريب، وقد كان لهذا التلاقح بين هاتين البلاغتين، أن أدخل تحويرا في روائية الرواية، وأكسبها ذلك مظاهر جديدة ما كانت تتميز به الرواية التقليدية.

## 2-2 آثار حضور السينما في روائية الرواية

تتجلى آثار انفتاح الرواية على السينما في المروي وفي الراوي، ويمكن إجمالها في انعدام الحبكة وتسطيح الشخصيات والتبشير وكيفيات البناء الزمني في الرواية.

فقد تتجاوز الرواية الحديثة كل مقومات الحبكة في الرواية التقليدية، فتعدم بناء الحكاية فيها على منطق السببية، وهي إذ تعدم هذه العلاقات التقليدية، تحاول أن تخلق لذاتها بديلا تنظم به الحكاية، مستوحى أساسي من بلاغة السينما القائمة على بلاغة المقارنة أو على مجاز المقارنة. وينهض على مقومين هما التكامل أو التماثل والتناقض أو التعارض<sup>(72)</sup>.

وفيما يخص علاقات التكامل أو التماثل، نجد الراوي يورد في روايته «لقطتين» أو «مشهدين» من سياقين مختلفين، ويركبهما الواحد تلو الآخر ويحرص فيهما على أن يوجد في أركانهما تماثلا في كثير من الأمور. ففي رواية «كوابيس بيروت» يقدم الراوي مشهدا للخراف التي تحمل «جلاديهما» على أكتافها إلى المسلخ، وتتهيء كل ما يلزم لذبحها، ثم تعتذر لذابحها، ثم يردف هذا المشهد بآخر لأناس يحملون جلاديهما على أكتافهم ويحمونهم من كل خطر، رغم فقرهم وسوء

(71) يقول فرانسوا فانوني: «إن الكلمة — بما هي علامة — تقول، في حين أن الصورة تظهر، ولا يمكن لتالي الكلمات أن ينقل الصورة كاملة أبدا. بيد أن الصورة تقدمها لترى بشكل إجمالي ومباشرة، وعلى الأقل، دون أن تقطعها أو تجزئها». انظر:

Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 87.

(72) للتوسع انظر الجدول الذي وضعه فرانسوا فانوني وقارن فيه بين بلاغة الرواية وبلاغة السينما، حيث رأى أساس الاختلاف بين البلاغتين، قائم في شكل التعبير ومادته أو ما يسميه بالـدال. انظر مصن : ص 42.

حالهم، ولا يفكرون لحظة واحدة في فتح بنادقهم عليهم<sup>(73)</sup>.

وفي رواية «ألف ليلة وليلتان»، يعرض الراوي مشهدا بين شيش بيش والملك وسليمان وجدالهم وصراخهم وتبادلهم الاتهامات، ثم يروي بعده مباشرة، حادثة رهان بني عبس وذبيان وخلافهما، والحرب التي دامت أربعين سنة<sup>(74)</sup>. يحاول الراوي في المقال الأول أن يوضح كيف أن الإنسان يصنع قاتله وطاغيته ويحافظ عليه بنفسه، تماما كما هي الخراف التي تقاد مذعورة إلى مسلخها، ولو فكر كلاهما قليلاً لوجد لنفسه خلاصاً أبدياً. ويحاول في المقال الثاني أن يربط الماضي بالحاضر وأن يؤكد على امتداده فيه. فالخلافات بين العرب بحسب وجهة نظر الراوي، ليست وليدة اليوم، وإنما هي سلسلة حقب طوال ضاربة في أعماق تاريخ العرب.

أما فيما يخص علاقات التناقض أو التعارض، فنجد الراوي يقدم في حكايته لقطة أو مشهداً ويردّفه بما يناقضه ويتعارض معه. ففي رواية «كوابيس بيروت» يروي حكاية أصدقاء ثلاثة أوقفهم حاجز أمني، واستبقى منهم واحداً كان مسيحياً يتم قتله. ثم يروي بعدها مباشرة مشهد امرأة جلست تتشاغل بصنع تمثال لطفل من الطين. وحين أكملت أجزاءه جميعها، تحرك التمثال وصرخ باكياً بكاء شهقة الحياة الأولى. وفي رواية «ألف ليلة وليلتان»، يورد الراوي مشهداً لأدباء يأتُمرون في فندق فخّم ويولمّون جدّ التخمّة، ثم يعقبه بمشهد لامرأة غارقة في برميل بين أكياس قمّامة تبحث عن بقايا طعام تقّات منها، وهي في بحثها هذا، تتزاحم وهرة كانت هناك<sup>(75)</sup>.

فالمثال الأول من علاقات التناقض يجسد فعلين متناقضين، فعلاً يصنع موتاً دون مقابل وبأسر السبل ولأتفه الأسباب، وفعلاً يصنع حياة من أبسط ما يكون. ويجسد المثال الثاني حقيقة الطبقة المثقفة حاملة هموم الفقراء ومشاكلها والمدافعة عنهم، كيف تقيم مؤتمراتها باسم هذه الطبقة ومن أجلها، في كنف البذخ والموائد العامرة، في حين يغرق الفقراء في براميل القمامة يصارعون الحيوانات على فتات موائد هؤلاء المثقفين وفضلاتهم.

ففي كلا المثالين، يأتي المشهد الثاني ليوضح فداحة سابقه أو يعرّي زيفه ويوضح الحقيقة الغائبة خلف الشعارات وباطل الخطاب.

(73) كوابيس بيروت : 52-53. وانظر منها كذلك : ص 176.

(74) ألف ليلة وليلتان : 10-11. وانظر منها كذلك : 16، 36، 52، 83، 84، 101، 136، 187، 329.

330.

(75) مصن : 85-87 انظر منه : 31-32 و 260.

وقد تتخلى الرواية الحديثة إذ ما جارت السينما عن مقولة عمق الشخصيات الاجتماعي لصالح تسطيحها وإسقاط ماضيها وإغفال ما به تتميز عن غيرها، فيشار إلى الشخصية باسمها فحسب أو بجنسها أو بما تفعله أو بعندها التراتيبي الذي تحتله وسط المجموع :

— «يسقط أحدهم مذيع (كذا)، يقفز أولهم من فوق المتسول، يعثر به آخرون.. تتركهم الشرطة. يلتحم الراكضون، يهوي الجذع المنتصب ويتدحرج إلى الشارع» [«الف ليلة وليلتان»، ص 32].

— «أراهم يقتادون الشباب إلى الرصيف» [«كوابيس بيروت»، ص 28].  
فالشخصية تصبح مجرد عون تسند له أدوار يؤديها في الحكاية ولا يلتفت إلى التعريف بها وبماضيها ولا يهتم بلباسها ولا بعمعها النفسي وكان المروي له يدركها مباشرة من خلال صورة، هي التي قدر لها أن تتكفل بتوضيح هذه الخلفيات أو بعضها.

ويظهر تسطيح الشخصيات — إضافة إلى ما تقدم — من وجه آخر هو الحضور المتساوي فيما بين الشخصيات في الحكاية. وخاصة في الروايات التي تتجاوز مفهوم البطولة وتبني حكايتها على شخصيات جماعية، تبرز فيها دائما مجتمعة، وتختفي منها مجتمعة، ولا يفسح فيها الراوي المجال لشخصية حتى يطغى حضورها على حضور غيرها أو يهيمن. تماما كما لو كان المروي له أمام مشهد سينمائي. وخير مثال لما تقدم، رواية «الف ليلة وليلتان»، فقد أورد الراوي في حكاية هذه الرواية، أكثر من مجموعة : مجموعة عباس ومجموعة إمام ومجموعة شيش بيش... تتناوب في الحضور في هذه الرواية بشكل جماعي، تغيب هذه فتحضر الأخرى إلى نهاية الرواية دون أن تتمحور الرواية على شخصية بطل<sup>(76)</sup>.

وما ينسحب على الشخصيات، ينسحب أيضا على المكان الروائي. فالرواية ليس لهم نزوع إلى توضيح هويته وليس لهم حرص على إبراز سماته أو خصوصياته مثلما كان معتمدا في الرواية التقليدية. فلا يشغلهم منه إلا كونه حيزا للفعل في الرواية : «أرى دكان بائع القبعات. أرى الرصاص يثقب القبعات كلها. في كل قبة عشرات الثقوب. في مكان آخر، أرى الرؤوس التي كانت مقدرات لها أن تبتاع هذه القبعات»<sup>(77)</sup>. فإذا اكتفى الراوي بالإشارة إلى المكان الأول بوظيفته التي

(76) للتوسع أنظر : بدري أحمد الناي : خصائص الكتابة... : 111 وللتنوع في معرفة كيفية المساواة فيما بين الشخصيات في الحضور في العمل السينمائي، أنظر

Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 119.

(77) كوابيس بيروت : 27.

يشغلها (دكان) وبوظيفة صاحبه (بائع القبعات)، فإنه أورد المكان الثاني نكرة من كل هوية، وأشار إليه فقط بما يجعله مختلفا عن الأول (مكان آخر)، وكأن رصد هذه الأمكنة يتم من خلال عدسة كاميرا تنتقل من مكان لآخر لترى الجثث/الرؤوس، لا لترى الأمكنة وتهتم بها أحيانا في ذاتها.

إن بناء الحكاية على مجموعة من المشاهد تترايط فيما بينها وفقا لمبدأ التماثل أو التناقض، وتسطيع الشخصيات والأمكنة في الرواية الحديثة، كان في أساسه من تأثير السينما وبلاغتها في الكتابة الروائية، وهذا التأثير لا ينحصر بحدود المروي، وفق ما رأينا فحسب، ولكن يجد امتداده كذلك في كل ما يتعلق بالراوي. ويمكن إجمالها في مظهرين اثنين: نوعية الإدراك المتحكم في المروي أو التبشير، وكيفيات انبناء الزمن في النص الروائي.

فقد اكتسب التبشير في الرواية العربية الحديثة، وخاصة تلك التي تحاول الاستفادة من التقنيات السينمائية، مرونة كبيرة. ويمكن تبين هذه المرونة، من وجوه كثيرة، منها اعتماد مستويات من التبشير متعددة في الرواية الواحدة<sup>(78)</sup>. فرواية مثل رواية «شرف»، لكن في القسم الثاني منها، تتحول الشخصية «شرف» لتصبح راوية تروي حكايتها هي بنفسها. وفي القسم الثالث، يعود الراوي الخارجي ليروي حكاية «شرف» من جديد، ثم في القسم الرابع، يفسح المجال لهذه الشخصية لتروي حكايتها ويستمر تناوب الراوي والشخصية على سرد الحكاية إلى آخر الرواية.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ومن وجوه المرونة التي طبعت التبشير في الرواية الحديثة -كذلك- نتيجة محاكاتها السينما، سهولة الاقتدار على التحكم في مصدر الإدراك قربا أو بعدا من موضوع الإدراك<sup>(79)</sup>. فهذه المرونة وسرعة الحركة في التنقل بين الموضوعات المبرارة والتحكم في زاوية الرؤية وتدقيقها، هي من خصائص البلاغة السينمائية، وما تتيحه لها عدسة الكاميرا وتقنيات استخدامها، من قدرة على محاصرة موضوعاتها والتبشير عليها بالكيفية التي يرتهاها حاملها أو مستخدميها. وقد خولت هذه المرونة -كذلك- للراوي أن يعدل بالتبشير الداخلي إلى تبشير خارجي. فبدلا من أن تكون الشخصية فاعل التبشير وموضوعه في وقت واحد، تكف

(78) يعتبر التبشير ثابتا حيث يمر كل شيء عن طريق الراوي الشخصية، وتقريبا لا يغير وجهة نظره، أو يكون متغيرا، إذا تعددت الشخصيات، وكل شخصية تروي بنفسها حكايتها. أو يكون متعددا إذا كانت في الحكاية شخصيات كثيرة تروي حدثا واحدا، فيعرض هذا الحدث أكثر من مرة وفق وجهة نظر كل شخصية تروي. انظر:

Genette Gérard : Figures III ; éd. Seuil, Paris, 1973, pp 206-207.

(79) انظر مثلا : ألف ليلة وليلة، 69.

عن أن تبثر على ذاتها وتلتفت إلى غيرها لتبثر عليه تبثيرا خارجيا. يقول الراوي في رواية «كوابيس بيروت» : «ها أنا أسكن ساحة حرب وأدافع عن جسدي بتلاوة أشعار المتنبي، كما لو كان تعويذتي. [...] هذا الرصاص قليلا. اقتربت من النافذة. كذلك فعلت الأم التي تقطن في الدور الثالث من البناء المقابل لبيتني»<sup>(80)</sup>. فالجملة الأولى والثانية من هذا المقتبس، التبثير فيهما تبثير داخلي، وما سواها يهيم على التبثير الخارجي. حيث انفصل الراوي عن الشخصية التي كانها وتابع سرده بصوته هو ليبثر على غيره (الأم التي اقتربت من النافذة).

وأما الخاصية الأخرى الواضحة التي استفادت الرواية فيها من منجزات السينما والمتعلقة بالتبثير، فهي حيادية الراوي<sup>(81)</sup>. فقد أضحى في روايته مجرد شاهد أو مراقب، يحاول جاهدا أن يكتفي بنقل ما تقع عليه حواسه. وروايتا «ألف ليلة وليلتان» و«رائحة الصابون» مثالان واضحا لهذا الضرب من حضور الراوي وكيفية إدراكه لمروياته. فالشخصيات فيهما مسطحة وكذا الأمكنة، والسرد فيهما محين بواسطة فعل المضارع الصيغة المهيمنة على هذين النصين الروائيين، ودرجة إدراك الراوي فيهما منقلصة إلى أدنى مستوياتها.

ويتضح تأثير السينما في روائية الرواية الحديثة، إضافة إلى ما تقدم، في مستوى كفيات بناء الزمن فيها. ونخص بالذكر مظهرين اثنين : الترتيب الزمني والحركات السردية أو ما يعبر عنه بالإيقاع.

لا ينحصر تأثير السينما في الترتيب الزمني في الرواية، في ما أصبح اليوم مظاهر مألوفة أو تقليدية في الكتابة الروائية كالاسترجاع (أو ما يسمى «بالفلاش باك»)، ولكن يخصص أنماط غيره من الترتيب كالترزامن والتوازي.

ففي نظام الترزامن يطمح الروائي إلى أن ينقل أكثر من حدث يقع في لحظة زمنية واحدة. وإن كانت الصورة بما تتميز به من عمق واتساع، قادرة على أن تستوعب نقل أكثر من حدث واحد في وقت واحد. كأن تجعل الحدث الأول في واجهة المشهد والآخر في خلفيته<sup>(82)</sup>، أو أن تظهر الحدثين معا يتناصفان واجهة الشاشة وفقا لما تتيحه تقنيات التركيب السينمائي، فإن الرواية بحكم طبيعة بلاغتها المؤسسة على اللغة المكتوبة، غير قادرة على ما تقدر عليه السينما.

(80) كوابيس بيروت : 11.

(81) من الصعب إذا لم يكن من المستحيل أن يصنع الراوي من اللغة تبثيرا خارجيا صرفا يضاهي ما تنتقله الكاميرا. فاللغة لابد أن يتسرب فيها شيء من ذات الراوي، بل إن المشاهد الفلمية نفسها، هي الأخرى، غير حيادية حيادا خالصا، فالزاوية التي يتخذها المصور والتركيب الذي تخضع له المشاهد، ينمآن عن خلفية ما وراء اختيار هذه الزاوية واعتماد هذا التركيب دون غيره.

(82) Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 82



تحدثه السينما فيها هو انحصار مكانة الخلاصة في الرواية. فإن كانت الخلاصة في الرواية التقليدية يستفتح بها المقطع، ويمهد بها لغيرها من الحركات السردية، فإنها في الرواية الحديثة، ضمرت أهميتها، وتقلص حضورها وفقدت موضعها ومكانتها. ومقابل ذلك، اعتنى بالمشهد سواء أكان أحداثاً مفصلاً فيها أم كان مشهداً حوارياً. وأضحت الحكاية في الرواية تؤثر في مجملها بمشاهد متتالية مثلها تماماً مثل الفيلم السينمائي، وأصبح الحذف أو الإسقاط يوظف فاصلاً بين هذه المشاهد. ونتيجة لذلك قصرت سعة وهكذا يمكن القول إن الرواية بقدر ما انفتحت على الشعر وتشربت بعضها من أدبياته، التفتت إلى السينما وحاكت بعضاً من فنونها وبلاغتها. وقد استطاعت الرواية رغم ما بينها وبين الشعر والسينما من فوارق، أن تجد مسالك تمكنها من تحديد نفسها وتجاوز ذاتها.

### 3 - الرواية والفنون الأخرى (المسرح والرسم)

ولم يكن انفتاح الرواية على الشعر والسينما فحسب، بل إنها تجاوزتها إلى فنون أخرى كالمسرح والرسم... والمتأمل في مدونة الرواية العربية منذ نص «زينب»، يجد للمسرح صدهاء في الرواية. وأول مظاهر التأثير به تنبئها في تقسيم الروايات إلى فصول<sup>(85)</sup>، أو إلى أجزاء تتعدد تسمياتها، فمن الروايات ما يعتمد مصطلح «الفصل» ومنها ما يعتمد غير هذا المصطلح كالأجزاء أو الأقسام أو الشماريخ أو الكوابيس، إلخ... ومنها ما يكتفي بالترقيم وبالخطوط. والروايات التي ذكرت في هذا البحث جميعها إن لم تكن مقسمة بهذه الطريقة، فهي مقسمة وفقاً لغيرها مما ذكر.

ويتجسد النص المسرحي أيضاً في النص الروائي من جانب آخر، في حضور ملخصات لنصوص مسرحية أو لمشاريع نصوص مسرحية وتضمينها في متون الروايات. والرواية التي يمكن أن نمثل بها لهذا، هي رواية «ثرثرة فوق النيل»، إذ يورد فيها راويها ما كان قد فعلته شخصية من شخصياتها، حين عمد إلى تدوين مشروع مسرحية محددة فكرتها وموزعة أدوارها بين شخصيات مقدمة تقديمها تفصيلياً بحسب طباعها وما يصلح لها من دور يمكن أن تضطلع به في هذه المسرحية<sup>(86)</sup>.

(85) يرى محمد الباردي أن حصر الرواية في عدد محدد من الفصول تحدياً مقدماً وخاتمة، مظهر من مظاهر المسرح. أنظر كتابه: «الرواية العربية والحداثة»، ط 2، دار الحوار، اللاذقية سورية، 2002، 119.

(86) «ثرثرة فوق النيل» لنجيب محفوظ. مكتبة مصر، د.ت، صص 108-110.

ولا يكتفى في حضور النص المسرحي في الرواية على مستوى التضمين، ولكن يتجاوزه إلى ما هو أبلغ وأعمق، حيث تتصل المسرحية بالرواية اتصالاً عضويًا، فتلتحم بها من عناصرها كافة. ففي رواية «شرف» وفيما سمي فيها «بعرض العرائش» الذي أقامته شخصيات الرواية بمناسبة ذكرى الانتصار العظيم في حرب أكتوبر 1973، يغدو النص المسرحي مكونًا من مكونات النص الروائي وحكايته. فالراوي لم يضمّن حكايته هذه نصًا مسرحيًا خارجيًا، وإنما جعل من شخصيات الرواية ذاتها كاتبًا ومخرجًا وأغوانًا ممثلين وجمهورًا، وهؤلاء كانوا هم الشخصيات التي تتحرك في هذه الرواية. كما جعل من المكان فيها، بما يؤثته من أشياء، ديكورا وركبا صالحا لعرض مسرحيته واكتفى هو بنقل حوارات الشخصيات وتوزيعها بينهم<sup>(87)</sup>.

والحوار في النص الروائي هو الآخر مظهر من مظاهر حضور المسرح. بل إنه في الأساس، من صلب العمل المسرحي، لا الروائي. ومع ذلك، أصبح ركيزة أساسية من الركائز التي يبني عليها الخطاب في أي نص روائي. وإن كانت الرواية التقليدية اعتادت أن تناوب فيما بين السرد والتبادلات القولية للشخصيات المتحاور، حيث يوظف السرد لتوزيع هذه التبادلات القولية وتنظيمها، بتوضيح أطراف الحوار وهيئاتهم وأحوالهم وموقف الراوي وتعليقاته ومآلات الحوار ونتائجه، إلخ...، فإن الرواية الحديثة قد ألغت في أحيان، كل ما به يتوسط بين خطاب الشخصيات، ويعلن عن تداخلاتها بما يفسر كلامها أو يترجم طريقة نبرها وتنظيمها أو الإشارة إلى سرعة تلفظها أو وصف حركاتها وما يصدر عنها أثناء تدخلها<sup>(88)</sup>، ومالت إلى إيراد الحوار خالصا من كل المعلنات ليدركه المروي له كما أنه أمام مشهد تمثيلي مسرحي<sup>(89)</sup>.

إن هذا التماس بين النص المسرحي والنص الروائي من شأنه أن يؤثر في روائية الرواية. إلا أن التأثيرات المحضة من هذا التماس تظل شبيهة بما تحدثه السينما في الرواية إلى حد كبير. ويتكشف ذلك من خلال هيمنة المشاهد على الحركات السردية الأخرى كالخلاصة والموقف... وتسطيع الشخصيات ورؤية الراوي، إذ تميل في الغالب إلى أن يكون متفرجا ينقل ما يشاهده. بقي فن الرسم، وهو الآخر لم تنعدم ملامح تأثيره في الرواية وحضوره فيها،

(87) «شرف» : 361 وما بعدها.

(88) Vanoye François : Cinéma et Récit, récit écrit - Récit filmique. Nathan, 1989, p 152

(89) أنظر مثلا : «كوابيس بيروت» : 64-68 و«ألف ليلة وليلتان» : 16-17. و«خضراء» لهاني

الراغب. دار المدى، دمشق، 2000، ص 313.



إذ تلفيه فيها من خلال وصف اللوحات أو الرسوم أو الصور، وذلك منذ رواية «الشحاذ»<sup>(90)</sup> وما كتب بعدها كرواية «تلك الراححة»<sup>(91)</sup> وشرح في تاريخ طويل، إذ توخى فيها راويها ما أسميناه بصنع «اللوحة»، ذلك أنه لم يكتف بالإعلان عن أن ما يروى في حكايته هو: «البوم الذكري»، وإنما وزع فيها بعض المشاهد على شكل لوحات يتولى وصفها والتعليق عليها<sup>(92)</sup>.

#### 4- خاتمة

نستطيع القول إن الرواية كان لها أن تصهر في جنسها أجناسا أدبية مجاورة وضروبا من الفنون المتنوعة. وقد كان لهذا انعكاسات ملموسة على روايتها، سواء تعلق الأمر بالمروي من حبكة وشخصيات وأطر مكانية، أم تعلق بالراوي وما يتصل به كعلاقته بالحكاية التي يروي ونوعية إدراكه المتحكم في المروي وتنظيم الزمن فيه وبناءه.

وما يمكن أن نخلص إليه كذلك، أن من الروايات ما اتكا على الشعر<sup>(93)</sup> ومنها ما مال إلى غيره من الفنون كالسينما بصفة خاصة والمسرح أو الرسم بشكل ثانوي، إلا أن هذا لم يمنع الرواية الواحدة من أن تجمع هذه النصوص المجاورة أو أغلبها، فتتفتح في الوقت نفسه على الشعر والسينما والمسرح والرسم، مثلما تحقق لروايات «ألف ليلة وليلة» و«البهاء» و«شرف» و«كوابيس بيروت»... إذ غدت الرواية حوارية، ليس لأنها جماع أصوات متباينة ورؤى مختلفة، ولكن لأنها جماع أمشاج من الفنون من نصوص شتى وجدت فيها الرواية العربية ما به تغتني وتتوغل في رحلتها التجريبية التحديثية.

ولا يغيب عن بالنا وضع انفتاح الرواية العربية على هذه البلاغات المجاورة وتأثيراتها في روايتها، في سياقها العام وتنزيله فيه، ذلك أنه يأتي في إطار علاقة هذه الرواية بالسياق العام الثقافي والاجتماعي الذي ولدها وعلاقتها بواقع ما أنجزته الرواية العالمية وما حققته.

#### أحمد النايي البديري

(90) «الشحاذ» لنجيب محفوظ، مكتبة مصر، د.ت. الصفحة الأولى.

(91) للتوسع في ذلك، انظر: الباردي محمد: الرواية العربية والحداثة: ص 272.

(92) للتوسع انظر: بدري أحمد النايي: خصائص الكتابة...، ص 34.

(93) قصرت زهرة كمون بحثها على الشعري في روايتي أحلام مستغانمي: «ذاكرة الجسد» و«فوضى الحواس». انظر بحثها: الشعري في ذاكرة الجسد وفوضى الحواس... وكان محرك هذا البحث أطروحة مضمرة فحواها أن الشعري في الرواية خصيصة من خصائص الرواية التي تكتبها المرأة.

# جائزة أبو القاسم الشابي

## الدورة الثانية و العشرون

### جائزة التأليف المسرحي لسنة 2007

تعلن لجنة جائزة أبو القاسم الشابي عن فتح باب الترشح لجائزتها الخاصة بالتأليف المسرحي لسنة 2007

#### مقدار الجائزة

مقدارها عشرة آلاف (10 000) دينار تونسي

#### شروط الترشح

- 1- أن يكون العمل المرشح تأليفا ( لا مقتبسا و لا مترجما ) و محررا باللغة العربية الفصحى .
- 2- أن يكون قابلا للإخراج المسرحي و التمثيل على الركب المسرحي أو قد تم تقديمه على خشبة أمام الجمهور المسرحي مع بيان مكان العرض و تاريخه و قائمة في العاملين فيه.
- 3- أن يكون منشورا لأول مرة في طبعته الأولى و صادرا في الفترة ما بين 1 جانفي (01) 2005 و 15 جوان (6) 2008 بدعوى الغاية <http://Archivebeta.Sa>
- 4- أن يقدمه مؤلفه في خمسة نظائر مطبوعة و مرفوقة وجوبا بطلب ترشحه محرر بخط واضح جدا مع نبذة مختصرة من سيرته الأدبية.
- 5- أن لا يكون التأليف المرشح قد أحرز به مؤلفه من قبل على أية جائزة في التأليف المسرحي من أي جهة على أن من فاز بجائزة أبو القاسم الشابي في الشعر أو الرواية أو القصة له الحق في أن يرشح تأليفا مسرحيا حسب الشروط .
- 6- أن يذكر مؤلف العمل المرشح عنوانه و وسائل الإتصال به بخط واضح جدا .
- 7- لا يقبل التأليف المرشح المسلم مباشرة إلى إدارة لجنة الجائزة .
- 8- أن يرسل بالبريد المسجل إلى العنوان التالي ،

لجنة جائزة أبو القاسم الشابي

الدورة الثانية و العشرون

البنك التونسي / 02 نهج تركيا / 1001 تونس  
الجمهورية التونسية

- 9- آخر أجل لقبول الترشيحات يوم 16 جوان (06) 2008 بشهادة ختم البريد.
- 10- الأعمال المرشحة لا تعاد إلى أصحابها .

## الاغتراب : تجلياته ووظائفه في روايتي « الغريب » لألبير كامي و« اللص والكلاب » لنجيب محفوظ -الجزء الثاني- (\*)

علي العزيزي

### 4 - الاغتراب الذاتي :

إن اغتراب الذات هو انفصال الذات عن الفرد، واغتراب النفس من وجهة نظر «إريك فروم E. Fromm». يتضمن انعدام الصلة بين الفرد وجزء حيوي وعميق من نفسه أو ذاته<sup>(\*)</sup>. فالعلاقة الاغترابية هي العلاقة بين الفرد وذاته، فيكون الانفصال بين الفرد وذاته مصحوبا بدوافع اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها... غير أن النتيجة التي يصل إليها كل من «مارسو» و«سعيد مهران» مختلفة تماما عن النتيجة التي وصل إليها «فروم»، أي أن البطلين لم يتنازلا عن ذاتيهما بالانغماس والذوبان في المجتمع. ولكن الذات - عندهما هي مصدر العذاب والبلوى، وهي القدر والمصير الذي لا مفر منه. إنهما لا يقدران على التحكم في هذه الذات لأنهما في حالة صراع دائم معها. وبذلك ننتهي إلى القول بأن علاقة البطلين بذاتيهما علاقة اغتراب، وهي حالة خاصة تعني إحساس الإنسان بأنه لا ينتمي إلى هذه الذات، تماما مثلما يشعر الإنسان أنه لا ينتمي إلى هذا الوطن.

ففيما يتعلق بآخوية الذات، نجد «سعيد مهران» يحدث ذاته كأنها آخر، ولعل الطريقة الفنية التي استعملها نجيب محفوظ في اللص والكلاب تؤكد هذا المعنى، فهو يتعامل على مستوى الضمائر مع (أنا) ليحوكه إلى (أنت) الآخر، ويبرز ذلك جليا في حرص سعيد على الانتقام من أعدائه مهما كلفه الأمر، فهو يحدث شخصه على أنه شخص آخر، فيقول : «استعن بكل ما أوتيت من دهاء، ولتكن

(\*) يراجع الجزء الأول من هذه الدراسة في : «قصص» عدد 141، جويلية/سبتمبر 2007، ص 93

43 - الغريب، ص 113.

44 - عالم الفكر، المجلد العاشر، عدد 1، أبريل 1979، ص 17.

ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران»<sup>(٤٥)</sup>.

فالواضح أن البطل يحاور ذاته، ومن السّخف أن نظنّ أنّه يتحدّث إلى أحد أصدقائه، وهو الذي قال عنه نجيب محفوظ عند خروجه من السجن: «وفي انتظاره وجد بدلتة الزرقاء وحذاءه المطاط، وسواهما لم يجد في انتظاره أحدا»<sup>(٤٦)</sup>. وأما إحساس «مارسو» بالانفصال عن الذات، فيمكن تلمّسه في العبارة التالية المعبرة عن ذات قلقة معذبة غير منتمية إلى صاحبها: «ماتت أمي اليوم.. وربما أمس، لا أدري»<sup>(٤٧)</sup>. فالذات اللامبالية هي ذات في ذروة العذاب، تعلن أنّ كلّ ما يدور حولها عبث، وكل ما تفعله دون معنى فلا تعرف الأمل لأنّه حكم عليها أن تصارع بلا هوادة حتّى النهاية.

وإذا بحثنا في اللّغة التي ينطق بها البطلان في روايتي «الغريب» و«اللّص والكلاب»، فإننا نعثّر على كلمات تدلّ في سياقها، وفي نسيج العمل على تفكّك الواقع واغتراب الذات وضياعاها مثل «لغز» و«الظلام» و«العبث» و«اللامعقول» وهذه الذات ما أقربها إلى ذوات شخصيات مليئة بالتناقض والقلق يزرخ بها تاريخ الوجوديّة مثل (نيتشة - كافكا - سارتر) وما أقربها إلى عالم دوستويفسكي الروائي الذي يسوده القهر والاغتراب واللامعقول باعتباره «المنطق الأكبر»<sup>(٤٨)</sup>.

إنّ التشابه واضح بين «مارسو» و«سعيد مهران»، فكلّ منهما له نزعة وجوديّة حادة تجرّفه إلى اختيار الموت كنهاية أليمة للحياة، ولكن ذلك لا يمنع من التشبّث بمباهج اللحظة الهاربة. و«مارسو» يصطدم بموت أمّه، فيشعر بأنّ وجوده ضرب من العبث، فيعزم على أن يجعل له معنى. فمأساته هي مأساة وجوده الذي يقتضي التمرد على كل أشكال القهر والعبوديّة، وانفصامه عن أمّه بموتها هو رمز إلى ولادته. إنه يدرك أنّ الله قد ألقي به في الكون المليء بالفوضى والغموض، ثم أهمله، وتركه وحيدا في غياهبه يبحث عن حريته بلا معين ولا نصير. فمسؤوليته ثقيلة تستوجب تحقيق الوجود بكل ما يمتلكه من إرادة خاصة. وأثناء المحاكمة، يرتفع صوت المدعي العام جهوريا مؤثرا: «يا حضرات المحلفين، أودّ أن تلاحظوا أنّ هذا الرّجل ذهب في اليوم التالي لوفاة أمّه إلى بركة السّباحة، وهناك بدأ علاقة

45 - اللّص والكلاب - ص 6.

46 - نفس المصدر السابق - ص 5.

47 - الغريب - ص 7.

48 - عبد الرحمن بدوي مقدمة كتاب الإشارات الإلهيّة لأبي حيان التوحيدي - وكالة

المطبوعات الكويت دار القلم بيروت 1891، ص 9.

غرامية مع إحدى الفتيات، وذهب معها لمشاهدة فيلم هزلي... ذلك هو كل ما أود أن أقوله»<sup>(49)</sup>. ولكن «مارسو» لا يعيا بكلامه ما دام وجوده سينتهي بعد حين من الزمن فموته يترقبه ومع ذلك، فهو يحس بأنه يقف على حافة الحرية مستعداً أن يبدأ حياة جديدة. وتكشف نهاية رواية «الغريب» عن السبب الحقيقي الذي يدفع البطل إلى اللامبالاة بالموت وهو شعوره بلا حقيقته واغترابه في عالم خال من المعنى.

وقد ظل «سعيد مهران» يعيش وجوده بنفس التمرد الذي عاش به «مارسو» فهو - منذ خروجه من السجن - يستقبل عالماً غريباً هو أول وجه من وجوه العبث «لقد فتح عينيه، فوجد الدنيا حمراء ولا شيء فيها ولا معنى لها»<sup>(50)</sup>. ووجوده الوحيد في هذه الدنيا الحمراء يتطلب منه الصراع والاستماتة لتحقيق الحرية : «أما هي قليلة طويلة مع الحرية. وحدي مع الحرية»<sup>(51)</sup>. ويصاب بالخيبة ويموت بين القبور والكلاب متحدياً موقف الخطر بلا مبالاة تذكرنا بلا مبالاة «مارسو» الغريب أمام حكم الإعدام. إن البطلين يوجدان في العالم وحيدين بلا نصير ولا معين. وأما الآخرون، فيمثلون جحيماً يعوقهما عن تحقيق وجوديهما. وهذا الوجود هو ضرب من العبث يحتاج إلى التحول من الكينونة إلى الوجود.

ومهما برأ النقاد نجيب محفوظ من التأثير بالوجودية، فإن روايته «اللص والكلاب» تؤكد أنه تأثر بالفلسفة الوجودية ولا سيما بفكرة العبث عند «البيير كامبي» وببطله المتمرد بصفة واضحة، فـ «سعيد مهران»، شأنه شأن «مارسو» يدافع عن حريته بمفرده ويتمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية بطريقته الخاصة وهو من خلال ذاته المغترية ومعاناته الوجودية يعيش ديمومته دون خوف من الموت.

## 5 - الاغتراب والتمرد :

إن الاغتراب ظاهرة متفشية بشكل واضح بعد الحرب العالمية الثانية التي تركت أثراً بليغاً في نفوس الناس. وأحدثت انقلاباً شاملاً في تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة. وبذلك جاء الأدب الذي أنتجه الكتاب الفرنسيون مؤكداً أن الاغتراب «مرض أصيب به الإنسان الحديث»<sup>(52)</sup> لا في الغرب أو الشرق، أو المجتمعات الرأسمالية دون الاشتراكية، وإنما في كامل أنحاء العالم. ويبين «البيير كامبي» روح كل عصر، فيرى أن القرن السابع عشر عصر الرياضيات، والقرن الثامن عشر عصر العلوم

49 - الغريب - ص 33.

50 - اللص والكلاب - ص 83.

51 - نفس المصدر السابق - ص 32.

52 - د. محمود رجب : الاغتراب - منشأة المعارف (دون تاريخ) ص 18.

الفلسفية، والقرن التاسع عشر عصر علم الأحياء، وأما القرن العشرون فهو عصر الخوف، وهو أكثر العصور انغماسا في «الغتراب».

فبعد أن كان أدب ما بين الحربين يتغنّى بالإنسانية كما يتصورها «أندري جيد» (A. Gide)، و«فالييري» (Valéry)، وغيرهما... ويتخذ «سعادة الحياة» مثلا أعلى له، طلع علينا أدب جديد يبرز أفضع أنواع الاغتراب الذي يهدد المصير البشري، ويوجهه توجيهها آخر. ولذلك نجد أن «البطل» هو النموذج الذي يسود أدب هذا الجيل، فيسعى إلى إنقاذ بني جنسه بالتمرد والتضحية بالنفس. وإذا كان هذا «البطل الفرد» يقبل أن يموت في حركة تمرده، فإنه بذلك يثبت أن الخير الذي يدافع عنه يفوق مصيره الخاص، فيشارك فيه جميع البشر. وحركة التمرد بعيدة عن الأنانية، وإن كانت تثيرها في كثير من الأحيان. ومعنى ذلك أن تمرّد البطليين «مارسو» و«سعيد مهران» لم يتولد من معاناتهما للظلم فقط، وإنما من رؤيتهما للظلم الذي يتعرض له «الأخر». وليس المقصود بهذا التعامل والالتحام مجرد تعويض يلجأ إليه المتمرد إحساسا بالنقص والدونية، وإنما انفعالا بما يوجه إلى الآخرين من إهانات واستغلال وظلم.

فالنّهاية التي وصل إليها كل من «مارسو» و«سعيد» ليست احتجاجا على ما عاناه الإنسان بمفرده من اغتراب وضيق، وإنما هي احتجاج على الاضطهاد الذي يعذب الإنسانية قاطبة. فليس البطل المتمرد هو الذي يكون هذه القيمة التي يدافع عنها، لأنه -لا بد- من وجود البشر كلهم لكي توجد هذه القيمة. وبذلك فما تكاد تبدأ حركة التمرد، حتى يصبح الاغتراب الشخصي نفسه جماعياً ومغامرة الجميع. فكان البطل يقول في غمرة الصراع: «إنني أتمرد «فنحن» إذن موجودون. وإذا كان هذا النوع من التمرد «التاريخي» موجودا في روايتي «الغريب» و«اللص والكلاب»، فإن تمرّدا آخر «ميتافيزيقيا» له بالغ الأثر فيهما. فهو المشكلة الأساسية لمعاناة الإنسان وهو «احتجاج طويل ضد الموت»<sup>(3)</sup> الذي يهدد الخلق بأكمله. فالمتمرد «الميتافيزيقي» يؤكد سلطته الخاصة ضد الشرور في العالم وضد السلطة العليا التي يحتج عليها، ويضعها موضع السؤال والنفي.

إن البطليين «مارسو» و«سعيد مهران» - بالرغم من اختلاف ظروفهما الاجتماعية والسياسية والدينية - يشتركان في التمرد على حالتيهما الإنسانية الغانية والأوضاع السائدة سواء كانت على هيئة نفاق أو مهزلة اجتماعية أو طريقة منحلّة في الحياة، ويدعوان إلى نفس اليقظة الشعورية ونفس الخلاص. فالبطلان

53 - البير كامى: «التمرد دراسة عن الإنسان الثائر» ترجمة انطوني بور، نيويورك 1956 - ص 100.

يكافحان القوة الغيبية التي تذلل الحالة البشرية بلا انقطاع، ويواجهان عبث الحياة بكل صفاء ذهن ووضوح باختيار مشعل الحرية، والالتزام بها حتى الموت، ذلك أن الإنسان المتمرد لا يتوقف عن التحقق بالفعل إلا في لحظة النهاية، فهو بمثابة الخالق في وجود ناقص يتخلله الغموض ويحاصره من كل جانب.

والبطلان يحملان نفس الإرادة للكفاح، ونفس الإدراك للنضال الذي يخوضانه ضد أشكال الموت الباعثة على الإحساس بالاعتراب. فالعدو واحد - بالنسبة إليهما - يتبدى في صور متعددة ويتجسد سواء في هيئة قوة غيبية سالبة لإرادة الذات، أو في هيئة مجتمع تسوده سلطة سياسية غاشمة تعوق الفرد عن أن يحيا حياته الفانية بأكبر قدر ممكن من الأمن والطمأنينة. فتمردهما يشتمل على نزعتين جوهريتين : نزعة أولى حادة ضد كل أشكال الاعتراب الاجتماعي والسياسي التي تفرض القيم المزيفة، وتحول وضعية الإنسان إلى مهزلة اجتماعية، ونزعة ثانية موجهة إلى القوة الغيبية باعتبارها المصدر الأول في اغتراب الإنسان في الوجود، والمتسبب في موت القيم الأصلية في المجتمع. وإذا انعدمت القيم الاجتماعية المشتركة المشروعة، فإنه يصبح من واجب الفرد أن يحيا مصيره الخاص، ويجد خلاصه بمفرده، ويزيل اغترابه بالوعي المتكامل والدفاع عن حريته حتى ولو أدى به ذلك إلى غياهب السجون أو الموت. فالفرد لا يقبل أي شكل من أشكال الاعتراب إلا مضطراً عندما يقف عاجزاً أمام النظام الاجتماعي الجائر والقوانين القهرية التي تجبره على التسليم والخضوع لها خضوعاً تاماً.

ولكن مهما كان تمرد «مارسو» و«سعيد مهران» عنيفاً، فإنه يبقى محدوداً وسطحياً لأنه لا يقوم على تحليل علمي للوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وإنما يختار طريق الفردية على غرار الفوضويين مما يقودهما إلى الفشل والهزيمة بالرغم من اعتقادهما الراسخ بأنهما يدافعان عن الإنسانية بأكملها. فـ«مارسو» يتناسى الطبقة التي ينتمي إليها، فيبقى معزولاً في مجتمع محروم من أعلى القيم ألا وهي الحرية، وأما «سعيد مهران» فهو بدوره لا يفلح في «إيقاظ النيام» بمسدسه وإغراقه في فرديته الضيقة، فينطبق عليه ما قاله «غالي شكري» حين تعزله اللاديمقراطية عن جماهير الشعب، وحين تعزله اللاحرية عن التنظيم السياسي المتكامل، فهو يتحول حينئذ إلى أحد مستويات التمرد السطحي الساذج الذي يعتمد أساساً على البطولة الفردية<sup>(34)</sup>.

54 - غالي شكري : المنتمي - دراسة في أدب نجيب محفوظ - دار المعارف مصر 1969 -

فالبطلان يعيشان نهاية منغلقة تماما أو تكاد، فـ«مارسو» يظل في سجنه منتظرا حبل المشنقة جزاء ارتكابه جريمة القتل، وأما «سعيد مهران» فيسقط بين القبور تحت رصاص الكلاب. فإذا ما دققنا النظر في كل نهاية على حدة، فإننا نحكم بأنها نهاية منغلقة على نفسها تؤدي إلى الإحساس بالضيق وفقدان الأمل. فتمرد البطلين سلبى يعتبر الحياة مجرد عبث مؤد إلى حل نهائي هو الموت، وهو بذلك يعترف بالعجز أمام ذلك العبث، ويقر بقمه وخضوعه له بصورة كلية ما دام قد انتهى إلى أسخف حل في الحياة.

إن المتمرد الحق لا يدعو العبث إلى إلغاء الحياة، وإنما يزيده تصميمًا على مواجهة أشكال الاغتراب فيها دون حاجة إلى التخلص منها. وبذلك تنقلب المشكلة رأسًا على عقب، فيبدو حل الموت مبعدا لأنه استسلام تام دون قيد أو شرط للخصم العنيد ألا وهو العبث. فالتنمرّد - بالنسبة إلى كامى - يتجاوز مفهوم الموت بوصفه الجذر الأصم للوجود البشري، والبرهان النهائي على عبث كلّ النّاس والكون، فيدعو إلى ضرورة مواجهته كحقيقة واقعة بالتخلص من اتجاه اليأس حتّى لو استبعد أدنى بارقة أمل في الحياة. فالموت «هو الرّمز الكبير للتناهي البشري وربما للعبث البشري»<sup>(55)</sup>. ذلك وضع رفيع يميّزه عن الحيوانات.

## الخاتمة : ARCHIVE

من خلال التحليل السابق يتبين أن نجيب محفوظ قد توخى منهاجا أدبيا فلسفيا يخالف كلّ المخالفة منهجه الشائع في رواياته السابقة ذات النزعة التاريخية والواقعية، والواقعية الجديدة. فهو قد تأثر في روايته «اللص والكلاب» بفلسفة العبث لألبير كامى لا سيما في روايته «الغريب». فإذا أردنا التصنيف، يمكننا اعتبار نجيب محفوظ في مرحلته الجديدة فيلسوفا عبثيا لأنه اختار لبطله «سعيد مهران» حلّ الموت اختيارا كمالا نهائيا يحطّم به حلقة اليأس المحكّمة ويتجاوز به وضعه الاغترابي. فهذا البطل شأنه شأن «مارسو» يستولي الاغتراب على وجوده، فيتسرّب إلى أعماق ذاته، ويفصلها عن ذوات الآخرين وعن النظام السياسي القائم...

فالبطلان يتشابهان في معاناة أفضع معاني الاغتراب الوجودي، فهما يصبحان غريبين حتّى في غربتهما، وتلك صورة مرعبة وقاسية للإنسان اللامنتمي الذي يحيا بجسده مع بني جنسه، ولكنه يظلّ منتزعا من ذاته، مسلوبا

55 - مجلة عالم المعرفة : الوجودية - تأليف جون ماكوري - ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام  
ع - 58 أكتوبر 1982 - ص 287.



من كل الجذور التي تربطه بالماضي والحاضر والمستقبل. إنه يعيش مع الناس وهو ليس منهم، يتنفس التمرّد وكأنه الهواء. ولكن هل اغتراب البطل العبثي اغتراب إيجابي أم سلبي؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضي أن نجعل هذا البطل في إطاره المكاني المناسب وهو المجتمع الذي ينتمي إليه كفرد. فهو يعيش أوضاعا تتسم على المستوى الاجتماعي والسياسي، بالفوضى والاستغلال والانهطام مما يؤدي به إلى عدم التّطابق والتّمائل، فيتناقض مع الواقع المفروض عليه، ويتولّد لديه إحساس بأنّ دائرة الوجود لم تكتمل بعد، وهذا ما يشعل نار تمرّده، ويفجّر في داخل ذاته طاقة عارمة لمواجهة المصير. إن اغتراب البطل العبثي - وإن كان مرتبطا بأحوال الوجود الإنساني - لا ينفصل عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية والدينية التي يعانيها مجتمعه الذي يوظّف إيديولوجيته لقمّره واستلاب ذاته. إنّه - بالرغم من ردّ فعله المحدد - يعبر عن اغتراب المثقّف ورفضه للظروف المتردّية التي تنفي وجوده وتناقضه.

فاغتراب كلّ من «مارسو» و«سعيد مهران» هو اغتراب المثقّف الملتزم بحريته، يتمرّد على كلّ المؤسسات القائمة التي تسعى إلى استئصال إنسانيته. إنّه اغتراب يحمل كثيرا من الجرأة والتّحدي والتضحية، يؤدي بصاحبه إلى الموت.

هناك فترات تاريخية يقتنع فيها الإنسان بوجود عناية تمنح للحياة معنى، وتكفل تواصل القيم الاجتماعية والأخلاقية الأصيلة، وهذه الفترات لها قدرة على توجيه كلّ مصير فرديّ نحو هدف عامّ مشترك. ولكنّ هناك فترات أخرى لا تضئها أيّة نار مركزية، فيتحتّم على الإنسان أن يشعل لهيبه وحيدا أو يبقى يرتجف في الظلام. وهذه هي الفترات التي عاشها كلّ من «مارسو» و«سعيد مهران» في مقاومة كلّ أشكال السكّط الاجتماعية والسياسية والدينية المتولّد عنها اغتراب الإنسان.

علي العريزي

#### المصادر :

1 - البير كامى : الغرب - المكتبة الثقافية بيروت 1982 (دون ذكر المترجم)

2 - نجيب محفوظ : اللص والكلاب - الدار التونسية للنشر 1989.

#### المراجع العربية :

1 - عبد الرحمان بدوي : مقدمة كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي - وكالة

المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت 1981.

2 - الموسوعة الفلسفية العربية - المجلد 1 - 1986.

3 - رجاء النقاش : أدباء معاصرون - كتاب الهلال 1971.

4 - غالي شكري : المنتمي - دراسة في أدب نجيب محفوظ دار المعارف بمصر 1969.

5 - مصطفى التواتي : دراسة في روايات نجيب محفوظ الذّهنية - الدار التونسية للنشر

1993.

6 - زكريا إبراهيم : هيجل أو المثالية المطلقة - مكتبة مصر - القاهرة 1970.

7 - محمود رجب : الاغتراب - منشأة المعارف (دون تاريخ)

8 - البير كامى : المتمرد دراسة عن الإنسان الثائر - ترجمة أنطوني بور - نيويورك 1956.

#### المجلات :

1 - مجلة عالم المعرفة - عدد 58 - أكتوبر 1982.

2 - عالم الفكر - المجلد العاشر عدد 1 - أفريل 1979.

#### المراجع الأجنبية :

1 - Feurbach, L'essence du christianisme, Trd, J.P Osier Maspers. Chp. 2

2 - K. Marx : Critique de la philosophie de droit de Hegel, 1844, Trad, Molitor - Œuvre philos, costes.

3 - F. Netzsche : le gai savoir, Trad. P. Klossowski - coll. 10.